

جبران خليل جبران

مناجاة ارواح

الكتبة الثقافية



0149808



Bibliotheca Alexandrina

جُبران خلیس جُبران

مناجاة ارواح

المكتبة والثقافية
بيروت - لبنان

فهرست

صفحة		صفحة	
٣٨	المعرفة ونصف المعرفة	١٠	مناجاة الروح في خيبر
٣٩	القديس	١٤	الكآبة
٤١	الطمع	١٦	العالم الكامل
٤٢	الشعراء	١٨	انني طببك يا ربي
٤٣	الخلافات	١٩	هل تأيدت العدالة؟
٤٦	الملك الناسك	٢٤	أيتها الأرض العطاء
٤٩	فلسفة الابتسامة	٢٧	الصدقة
٥٣	شكوى القبور	٢٩	ابن الفارض
٥٥	المدينة العظمى	٣١	مصراع البطل
٥٧	حكم وآراء	٣٧	الكهال
٥٨	الشیطان		
٧٥	الكلام وطوائف المتكلمين		

مناجاة أرواح



استيقظي يا حبيبتى ! استيقظي لأن روحي تناديك من
وراء البحار الهائلة ، ونفسي تمد جناحها فحوك فوق الأمواج
المزبدة الغضوبية ، استيقظي ، فقد سكنت الحركة ،
وأوقف الهدوء ضحة سنالك الخيل ، ووقع أقدام العابرين ،
وعانق النوم أرواح البشر فبقيت وحدي مستيقظاً ،
لأن الشوق ينتشني كلما أغرقني النعاس ، والمحبة تدنيني
إليك عندما تقصيني الهواحس ، وقد تركت مضجعي يا
حبيبتى خوفاً من خيالات السُّلُو^(١) المختبئة بين طيات اللحف ،
ورميت بالكتاب لأن تأوهي^(٢) قد أباد السطور من صفحاته ،
فأصبحت خالية بيضاء أمام عيني ، استيقظي ! استيقظي
يا حبيبتى واسمعي .

— هاأنذا يا حبيبي قد سمعت نداءك من وراء البحار ،
وشعرت بلامس جناحيك ، فانتبهت^(٣) وتركت مخدعي ،

(٢) التأوه : التوجع .

(١) السلو : النسيان .

(٣) انتبه من النوم : استيقظ .

وسرت على الأعشاب فتبليت قدماي وأطراف ثوبي من ندى
الليل ، ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء
نفسك يا حبيبي !

- تكلمي يا حبيبي ! ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء
القادم نحوي من أودية لبنان . تكلمي ، فلا سامع غيري ،
لأن الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات الى أوكارها (١) ،
والنعاس أسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحياً .

- قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على
جسد لبنان يا حبيبي !

- قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداءً كثيفاً مبطناً
بدخان المعامل وأنفاس الموت ، وسترت به أضلع المدينة
يا حبيبي !

- قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار
الجوز والصفصاف ، وتسابقت نفوسهم نحو مسارح الأحلام
يا حبيبي !

- قد أناحت (٢) أجمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت (٣)

(١) الأوكار - جمع وكر - : وهو عش الطائر .

(٢) أناخت : هنا بمعنى حنت .

(٣) أوهنت ركبهم : أضعفتها .

عقبات المطامع ركبهم ، واثقلت المتاعب أجفانهم ، فارتموا
على الفرش ، وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم
يا حبيبتى !

* * *

- قد سرت في الأودية خيالات الاجيال الغابرة (١) ،
وحامت على الروابي أرواح الملوك والأنبياء ، فانشئت فكرتي
نحو مسارح الذكرى ، وأرتني عظام الكلدانيين والآشوريين ،
وفخامة ونبالة العرب .

- قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القائمة ، وظهرت
من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات ، وجرت
في منعطفات الشوارع انفاس الأمراض ممزوجة بلهثات (٢)
المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان ، وأرتني مكاره
سادوم وآثار عامورة (٣) .

* * *

- قد تمايلت الأغصان يا حبيبتى ! وتحالف حفيفها مع
خرير ساقية الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان
ورنات قيثارة داود وأغاني الموصلي .

- قد ارتعشت نفوس أطفال الحي ، وأقلقهم الجوع ،

(١) الغابرة : الماضية

(٢) اللهث : شدة الموت.

(٣) سادوم وعامورة : مدينتان في فلسطين ، ذكر الكتاب المقدس

أن الله أمطرهما بغضبه النار والكبريت .

وتسارعت نهدات الامهات المضطجعات على أسرة^(١) الهم^{*}
واليأس ، وأراعت أحلام العوز^(٢) قلوب الرجال المقعدين ،
فدهعت نواحا مرآ ، وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندباً ورثاء

* * *

— قد فاحت روائح النرجس والزنبق ، وعانقت عطر
الياسمين والبيلسان ، ثم تمازجت بأنفاس الأرز الطيبة ،
وسرت مع توججات النسيم فوق الطلول المتشعبة ، والممرات
الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ، ومنحتها حنيناً إلى
الطيران .

— قد تصاعدت روائح الأزقة الكريهة ، واختمرت
بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس
وسممت الهواء .

* * *

— ها قد جاء الصباح يا حبيبي ! وداعبت أصابع
اليقظة. أجفان النيام ، وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء
الجبيل ، وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة وبجدها :
فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كفتي الوادي ،

(١) الأسرة جمع سرير - : وهو التخت .

(٢) العوز : الحاجة .

وترنمت أجراس الكنائس وملاّت الاثير فداءً مستحبّاً معلنة
 بدء صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها كأن
 الطبيعة بأسرها قامت مصلية . قد غادرت العجول مرابضها ،
 وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها ، وانثنت نحو الحقول
 ترتعي رؤوس الاعشاب المتلعة بقطر الندى ، ومشى أمامها
 الرعاة ينفخون الشبابات ، ووراءها الصبايا المتأهلات مع
 العصافير بقدم الصباح .

قد جاء الصباح يا حبيبتى ! وانبسّطت فوق المنازل
 المكردسة (١) أكفّ النهار الثقيلة ، فأزيمحت الستائر عن
 النوافذ ، وانفتحت مصاريع (٢) الأبواب ، فنبانت الرجوه
 الكالحة ، والعيون المعروكة . وذهب التعساء الى المعامل ،
 وداخل أجسادهم يقطن الموت في تجوار الحياة . وعلى
 ملاحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط (٣) والخوف ، كأنهم
 منقادون قهراً إلى عراق هائل مهلك .

ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين ، وامتسلاً
 الفضاء من قلقلة (٤) الحديد ، ودوي الدواليب ، وعويل
 البخار ، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي
 الضعيف ، ويستأثر الغني الظلوم باتعاب الفقير المسكين .

(١) المكردسة : المجتمعة .

(٢) مصاريع - جمع مصراع - : وهو أحد غلقي الباب ، وتسميه
 العامة : درفة .

(٣) القنوط : اليأس

(٤) قلقلة الحديد : الصوت الذي يحدث عند احتكاك الحديد ببعضه .

— ما أجمل الحياة هاهنا يا حبيبي ! فهي مثل قلب
الشاعر المملوء نوراً ورقة !
— ما أقسى الحياة هاهنا يا حبيبتى ! فهي مثل قلب
المجرم المفعم^(١) بالإثم والخاوف .

في خيبتى غلبتني



يا خيبتى ، يا خيبة ! يا وحدتى وانفرادي ، إنك لأعز
لدي من الف انتصار ، وأحلى على قلبي من كل أيجاد
الأقطار .

يا خيبتى ، يا خيبة !
يا معرفتي لنفسي واحتقاري لذاتي ، بك أعرف أنني لا
أزال فتياً سريع الخطى ، فلا تغريني أكليل الغار الذابلة
الفانية ، بك قد حظيت بوحدتي وانفرادي ، وتذوقت
لذة فراري واحتقاري .

يا خيبتى ، يا خيبة !
يا سيفي البتار^(٢) وترسي البراق ، قد قرأت في عينيك :
أن الانسان متى جلس على عرش الملك ، فقد صار عبداً ،

(٢) البتار : القاطع .

(١) المفعم : المملوء .

ومتى أدرك الناس أعماق روحه ، فقد طوى كتاب
حياته ،

ومتى بلغ أوج^(١) كاله ، فقد قضى نخبه^(٢) ،

بل هو كالثمرة إذا نضجت سقطت واندثرت ؛ يا خيبتى
يا خيبة ! يا رفيقى الباسل الودود ؛ أنت وحدك تسمعين
إنشادي ، وصراخي ، وسكوتي ، وليس غيرك بمحدثي
عن خفقان الأجنحة ، وهدير البحار ، وعن قذائف البراكين
الناثرة في دوامس^(٣) الليالي .

أنت وحدك تتسلقين صخور نفسي الجلودية^(٤) الشائخة .

يا خيبتى ، يا خيبة ! يا شجاعتي التي لا تموت ، أنت
تضحكين معي في العاصفة ، وتحفرين معي قبوراً لما يموت
مني ومنك ، وتقفين معي أمام وجه الشمس يجلد^(٥) وثبات ،
فنكون معاً هائلين مرعبين .

(١) الأوج الملوّ . (٢) قضى نخبه : مات .

(٣) دوامس الليالي أي : التيني المظلمة .

(٤) الجلودية : النسابة . (٥) الجلد : العذب .

الكتابة الخرساء



أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع
رسومه ، متأسفين على انقضائه ، أما أنا فأذكره مثلما
يذكر الحرّ المعتوق^(١) جدران السجن وثقل قيوده ، أنتم
تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب : عهداً
ذهيباً ، يهزأ بمتاعب الدهر وهو أجسه ، ويطير مرفرفاً
فوق رؤوس المشاغل والهموم ، مثلما تجتار النحلة فوق
المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين المزهرة ، أما أنا فلا
أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء ،
كانت تقطن قلبي ، وتثور كالعواصف في جوانبه ، وتتكاثر
نامية بنموه ، ولم تجد منفذا تتصرف منه إلى عالم المعرفة ،
حق دخل إليه الحب ، وفتح أبوابه وأثار زواياه .

فالحب قد عتق لساني فتكلمت ، ومزق اجفاني
فبكيت ، وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات

(١) المعتوق : الذي أعيدت حرية إليه بعد أن كان عبداً .

وجوانب الشوارع ، التي رأت ألعابكم ، وسمعت همس
 طهركم ، وأنا أيضاً أذكر تلك البعثة الجميلة من شمال
 لبنان ، فما أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا ورأيت تلك
 الأودية المملوءة سحراً وهيبة ، وتلك الجبال المتعالية بالمجد
 والعظمة نحو العلاء ، ولا صممت أذني عن ضجة هذا
 الاجتماع ، إلا وسمعت خرير تلك السواقي ، وحفيف تلك
 الفصون ، ولكن هذه المحاسن التي أذكرها الآن ، وأشوق
 إليها شوق الرضيع إلى ذراع أمه ، هي التي كانت
 تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة (١) ، مثلما يتعذب
 البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب البزاة تسبح
 حرة في الحلاة الوسيعة . . . وهي التي كانت تملاً صدري
 بأوجاع التأمل ، ومرارة التفكير ، وتنسج بأصابع الحيرة
 والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي . . . فلم
 أذهب إلى البرية إلا وعدت منها كثيراً ، جاهلاً أسباب
 الكآبة ، ولا نظرت مساءً إلى الغيوم المتلونة بأشعة
 الشمس ، إلا وشعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني
 الانقباض ، ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير ،
 إلا ووقفت حزينا لجهلي موحيات الحزن .

يقولون : إن الغبارة مهد الخلود ، والخلود مرقد
 الراحة . . . وقد يكون صحيحاً عند الذين يولدون
 أمواتاً ، ويعيشون كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب ،

(١) الحداثة : الطفولة .

ولكن إذا كانت الغباوة أقصى من المساوية ، وأمرّ من الموت ، والصبي الحساس الذي يشعر كثيراً ويعرف قليلاً ، هو أتمس الخلوقات أمام وجه الشمس ، لأن نفسه قظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين (١) : قوة خفية تحلق به إلى السحاب ، وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيد به بالأرض ، وتغمر بصيرته بالغبار ، وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة (٢) .

للكتابة إياها حريرية الملامس ، قوية الأعصاب ، تفيض على القلوب وتؤلها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكتابة كما أنها أليفة كل حركة روحية ، ونفس الصبي المنتصب أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكتابة ، شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكيامة (٣) ترتعش أمام النسيم ، وتفتح قلبها لأشعة الفجر ، وتضم أوراقها بمرور خيالات المساء ، فإن لم يكن للصبي من الملامي ما يشغل فكرته ، ومن الرفاق من يشاركه في الأميال كانت الحياة أمامه كحبس ضيق ، لا يرى في جوانبه غير أقوال المناكب ، ولا يسمع من زواياه سوى ديب الحشرات .

أما تلك الكتابة التي اتعبت أيام حدائتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي إلى الملامي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق ، لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل

(٢) حالكة : شديدة السواد .

(١) متباينتين : متضادتين .

(٣) الكيامة : غطاء الزهر .

هي من أعراض (١) علة طبيعية في النفس ، كانت تحبب
الي الوحدة والانفراد ، وتمت في روعي الأميال الي
الملاهي والالعاب ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني
أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال ، يعكس بهدوئه المحزن
رسوم الاشباح ، وألوان الغيوم ، وخطوط الأغصان ،
ولكنه لا يجد ممرأ يسير فيه جدولاً مترنماً الي البحر .
هكذا كانت حياتي قبل ان أبلغ الثامنة عشرة ، فتلك
السنة هي من ماضيّ بمقام القمة من الجبل ، لأنها أوقفتني
متأملاً تجاه هذا العالم ، وأرتني سبل البشر ، ومروج
أميالهم ، وعقبات عتايهم ، وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .
في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء إن لم تحبل به الكتابة ،
ويتمخض به اليأس ، وتضعه المحبة في مهد الأحلام ، تظل
حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

(١) أعراض : مظاهر .

العالم الكامل



يا إله النفوس الضائعة ، أيها الضائع بين الآلهة ،
استمعني ! أيها القدر الرحيم الساهر على نفوسنا التائهة المجنونة ،
اصنع لي ! فإني وأنا ناقص أعيش بين الكاملين من البشر .
أنا ، أنا البشرية المشوشة السديم ، المضطرب العناصر ،
أتخطر بين عوالم تامة من شعوب قد كملت شرائعهم ،
وتنزهت نظمهم ، وتنسقت أفكارهم (١) ، وترقبت أحلامهم ،
وتسجلت رؤاهم ، في الأسفار (٢) والدواوين .

رباه ! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ،
ويزنون خطاياهم بالموازن ، ولديهم سجلات وفهارس لما لا
يحصى من التوافه والنقائص التي ليست بالخطايا فتعرف ،
ولا بالفضائل فتنصف .

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقننة مرتبة .
فيفعلون كل شيء في حينه على وفق ما يخطر لهم . فالأكل
والشرب والنوم وكساء العرية ، ثم السامة والضجر ، في
حينه .

(١) تنسقت الأفكار : تنظمت .

(٢) الأسفار -- جمع سفر -- : وهو الكتاب .

والعمل واللعب والغناء والرقص، ثم الاستراحة عندما تحين ساعتها .

الافتكار بهذا ، والشعور بذلك ، ثم العدول عن الافتكار والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد ، سلب الجار بثغر باسم ، ومنح العطايا بيد تتوقع الثناء والشكر ، ثم المديح بفتنة ، والملامة بتروية ، وقتل النفس بكلمة ، واحراق الجسد بقبلة ، وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء .

الحبة بتقليد مطروق (١) ، والتسلية على متوال مسبوق ، وعبادة الألهة كما يحق ويليق . والاحتياال على الشياطين والمكر بالزنديق ، ثم نسيان كل ما جرى وصار كأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار (٢) . التصور لغاية ، التأمل بعناية ، والمسرة بدراية ، والتألم بوقاية ، ثم إفراغ كأس الآمال رجاء ان تملأها الأيام من المآل (٣) .

رباه ، رباه ! ان جميع هذه تسبق الفكر ، فيجعل بها ، والعزيمة فتلدها ، والدقة فترببها ، والنظام فيسودها ، والعقل فيديرها ؛ ثم تنحروتلحد في زوايا سكينة النفوس ، فتبقى قبورها الموسومة (٤) بالعلامات والارقام عظة لنا ولجميع الأنام .

(١) المطروق : الذي فيه لين واسترخاء .

(٢) الأغرار - جمع غرير - وهو الشاب الذي لا تجربة له .

(٣) المآل : النتيجة . (٤) الموسومة : هنا بمعنى المميّزة .

أجل ، هذا هو العالم الكامل الذي بلغ أوجه ، عالم
 الغرائب والمعجزات ، بل هو أنضج ثمرة في جنان الله
 وأسعى عالم بين عوالمه ، ولكن لم أنا هاهنا يا رب ! لم
 أنا هاهنا ، وأنا ثمرة عجرا (١) لم تنل بعد شهوتها من
 النماء ، وعاصفة صماء هوجاء لا شرقاً تبتغي ولا غرباً ،
 وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق تائر ؟

لم أنا هاهنا ؟ لم أنا هاهنا ، يا إله النفوس الضائعة ، أيها
 الضائع بين الآلهة ؟

إنني عبدك يا ربي



عندما ارتعشت شفتاي بالنطق لأول مرة ، صعدت
 إلى الجبل المقدس ، وناديت الله قائلاً : « انني عبدك
 يا ربي ، مشيئتك الحفية شريعتي ، وسأظل خاضعاً لك
 سحابة الحياة » .

فلم يجبني الله بل مرّ كعاصفة واختفى عن ناظري .
 وبعد ألف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس ،
 وناطبت الله قائلاً : « أنا جبلة يديك يا خالقي ، من

(١) عجرا : أي فجة غير ناضجة .

تراب الأرض صنعتني ، وبنفحة من روحك العلوية أحييتني
فأنا مدين لك بكليتي .

فلم يجبني الله ! وكألف من الأجنحة الخاطفة اجتاز بي
عابراً .

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس أيضاً ، وناجيت
الله ثالثة قائلاً : « يا أبتاه القدوس ، أنا ابنك الحبيب ،
بالرأفة والمحبة ولدتني ، وبالمحبة والعبادة سأرث ملكوتك » .
فلم يجبني الله في هذه المرة أيضاً . وكالضباب الذي
يفشى قصي التلال تواري عن عيني .

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس ، وخطبت الله
رابعة قائلاً . يا إلهي الحكيم العليم ، يا كالي ومحجتي .
أنا أمسك ، وأنت غدي ، أنا عروق لك في ظلمات
الأرض ، وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ، ونحن ننمو
معاً أمام وجه الشمس » .

فمطف الله إذ ذاك علي وانحنى فوقني ، وهمس في أذني
كلمات تذب رقة وحلاوة ، وكما يطوني البحر جدولا
منحدرا إليه ، تواري الله في أعماقه .

وعندما انحدرت إلى الأودية والسهول ، كان الله هناك
أيضاً .



هل تأيدت العدالة



وكان عرس في قصر الأمير في إحدى الليالي ، وكان المدعوون يدخلون ويخرجون ، فدخل رجل مع الداخلين ، وحمى الأمير باحترام ووقار . فنظر إليه الجميع بدهشة لأن إحدى عينيه كانت مفقودة ، والدم ينزف من نقرتها الفارغة . فسأله الأمير قائلاً : « ما دهاك يا صاح ؟ » فأجابه الرجل قائلاً : « أنا لص أيها الأمير ، وقد اغتنمت فرصة في ظلمة هذه الليلة على جاري عادتي ، وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة .

وفيا أنا أتسلق الجدار لأدخل دكان الصيرفي ضللت سبيلي ، ودخلت من نافذة جاره الحائك ، فعدوت طالباً الهرب وأنا لا أبصر شيئاً لشدة الظلام ، فلطم نول الحائك عيني وفقرها . ولذلك أتيتك الآن ملتماً أن تنصفني من الحائك » .

فأرسل الأمير واستدعى الحائك ، فأحضر الحائك في الحال ، فأمر الأمير أن تطلع عينه . فقال له الحائك : « بالصواب حكمت أيها الأمير ، فإن

العدالة تقضي بقلع عيني . ولكنه غير خاف على سموك أنفي
أحتاج في حرفتي إلى عيدين لكي أرى حاشيتي الشقة التي
أنسجها ، غير أن لي جاراً اسكافياً له عينان مثلي ، ولكنه
لا يحتاج في مهنته إلا إلى عين واحدة ، فاستدعه إن أردت
واقلع إحدى عينيهِ للمحافظة على الشريعة .
فأرسل الأمير بي الحال واستدعى الإسكافي ، فحضر
واقلمت عينه .
وهكذا تأيدت العدالة !

أيتها الأرض



ما أجملك أيتها الأرض وما أبهاك !
ما أتم امتثالك للنور ، وأنبل خضوعك للشمس !
ما أظرفك متشعة بالظل ، وما أملح وجهك مقنماً
بالدجى !
ما أعذب أغاني فجرِكَ ، وما أهول تهاليل مسائك !
وما أكملك أيتها الأرض ، وما أسناك (١) !
لقد سرت في سهولك ، وصعدت على جبالك ،

(١) أسناك : أي أرفعك .

وهبطت إلى أوديتك ، وتسقلت صخورك ، ودخلت
كهوفك ، فعرفت حلمك في السهل ، وأنفتك^(١) على الجبل ،
وهدوءك في الوادي ، وعزمك على الصخر ، وتكتمك في
الكهف ، فأنت أنت المنبسطة بقوتها ، المتعالية بتواضعها ،
المنخفضة بعلوها ، اللينة بصلابتها ، الواضحة بأسرارها
ومكنوناتها .

لقد ركبت بحارك ؛ ونحضت انهارك ، وتقبعت
جداولك فسمعت الأبدية تتكلم بمدك وجزرك^(٢) والدهور
تترنم بين هضابك وحزونك^(٣) والحياة تناجني الحياة في شعبك
ومنحدراتك ، فإنك إنك لسان الأبدية وشفاهها ، وأوتار
الدهور وأصابعها ، وفكرة الحياة وبيانها .

لقد ايقظني ربيعك ، وسيرني الى غاباتك حيث تتصاعد
أنفاسك بخوراً ، وأجلسني صيفك في حقولك حيث يتجوهر
اجهادك أثماراً ، وأوقفني خريفك في كرومك حيث يسهل
دمك خمراً ، وقادني شتاءك الى مضجعك حيث يتناثر
طهرك ثلجاً ، فأنت أنت العطرة بربيعها ، الجوادة بصيفها ،
الفياضة بخريفها ، النقية بشتائها .

في الليلة الصافية قد فتحت نوافذ نفسي وأبوابها ،
وخرجت اليك مثقلاً بمطامعي ، مكبلاً بقيود أنايمتي ،

(١) الأنفة : الترفع ، والعلو .

(٢) المد هنا بمعنى النعدم ، والجزر بمعنى التأخر .

(٣) الحزون - جمع حزن - : وهو ما غلظ من الأرض وارتفع قليلاً .

فألفيتك شاخصة بالكواكب ، وهي تبسم لك . فنزعت
عني قيودي وأثقالي ، وعلمت ان منزل النفس فضاؤك .
ورغائبها في رغائبك ، وسلامتها في سلامتك ، وسعادتها في
الغبار الذهبي الذي تنثره النجوم على جسدك .

في الليلة المبطنة بالغيوم ، وقد مللت غفلي وجمودي ،
خرجت اليك فوجدتك جبارة هائلة ، مسلحة بالعاصفة ،
تحاربين ماضيك بحاضرِكَ ، وتصرعين قديمك بجديدك ،
وتبعثرين ضئيلك بضليعك ، فعلمت ان نظام البشر نظامك ،
وناموسهم ناموسك (١) وستتهم سنتك ، وان من لا يهصر (٢)
بأرياحه ما يبس من أغصانه ، يموت ملاً ، ومن لا يمزق
بثوراته ما يلي من أوراقه ، يفنى خملاً (٣) ، ومن لا
يكفن بالنسيان ما مات من ماضيه كان هو كفننا لمآتي الماضي .

...

ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناتك (٤) .
ما أشد حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم الى
أوهامهم ، الضائعين بين ما بلغوا اليه وما قصرُوا عنه .
نحن نضحك وأنت تضحكين !
نحن نذنب وأنت تكفرين !

(٢) هصر الشيء : كسره .
(٤) الأناة : الحلم ، والانتظار .

(١) الناموس : القانون .
(٣) الخمول : الكسل .

نحن نجذف وأنت تباركين !
 نحن ننجس وأنت تقدسين !
 نحن نهجع ولا نحلم ، وأنت تحملين في سهرك السرمدى ،
 نحن نكلم بصدرك بالسيوف والرماح ، وأنت تغمرين
 كلومنا^(١) بالزيت والبلسم !
 نحن نزرع راحاتك العظام والجماجم ، وأنت تستنبتينها
 حوراً وفضفاً !
 نحن نستودعك الجيف ، وأنت تملئين بيادرنا بالأشجار ،
 ومعاصرنا بالمناقيد !
 نحن نصبغ وجهك بالدم ، وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثرا
 نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف ،
 وأنت تتناولين عناصرنا وتكونين منها الورود والزنابق !
 ما أوسع صبرك أيتها الأرض ، وما أكثر انمطافك !
 ما أنت أيتها الأرض ، ومن أنت ؟
 أذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمي الله عندما سار من
 مشارق الأكوان الى مغاربها ، أم شرارة قذفت من موقد
 اللانهاية ؟
 أنواة طرحت في حقل الأثير ، ليشق قشرتها بعزم
 لبابها ، وتتعالى نصبة ربانية الى ما فوق الأثير ؟
 أقطرة من الدم في عروق جبار الجبابرة ، أم أنت
 قطرة من العرق على جبينه ؟

(١) الكلوم : الجروح .

أثمرة تلوحها الشمس ببطء ، أثمره أنت في شجرة المعرفة
الكلية التي تمد عروقها الى أعماق الأزل ، وترفع غصونها الى
أعماق الأبد ؟ أم جوهره أنت وضعها إله الزمن في حفنة
إلهة المسافة ؟
أطفلة أنت في حضن الفضاء ، أم عبوز ترقب الأيام
والليالي ، وقد شبعت من حكمة الليالي والأيام ؟
ما أنت أيتها الأرض ومن أنت ؟
أنت أنا أيتها الأرض ! أنت بصري وبصيرتي ، أنت
عاقلي وخيالي وأحلامي ، أنت جوعي وعطشي ، أنت
ألمي وسروري ، أنت غفلي وانتباهي !
أنت الجمال في عيني ، والشوق في قلبي ، والخلود في
روحي !
أنت أنا أيتها الأرض فلو لم أكن لما كنت !



العطاء



إنك إذا أعطيت فإنما تعطي القليل من ثروتك ،
ولكن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءاً من ذاتك ، لأنه
أي شيء هي ثروتك ؟ أليست مادة فانية تخزنها في
خزائنك ، وتماقط (١) عليها جهدك خوفاً من ان تحتاج
اليها غداً .

والغد ! ماذا يستطيع الغد أن يقدم للكل البالغ
الفتنة ، الذي يطمر العظام في الرمال غير المطروقة ، وهو
يتبع الحجاج في المدينة المقدسة .

أو ليس الخوف من الحاجة ، هو الحاجة بعينها ؟ أم
ليس الظم الشديد للماء ، عندما تكون بشر الظامى ملافة ،
هو العطش الذي لا تروى غلته ؟ !

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عندهم ، وهم
يعطونه لأجل الشهرة ، ورغبتهم الخفية في الشهرة الباطلة
تضيع الفائدة من عطايام ، ومنهم من يملكون قليلاً
ويعطونه بأسره !

(١) تماقط : هنا بمعنى تحافظ .

ومنهم المؤمنون بالحياة ، ولسخاء الحياة هؤلاء لا تفرغ
صناديقهم ، وخزائنها ممتلئة ابدأ ، ومن الناس من يعطون
بفرح ، وفرحهم مكافأة لهم ، ومنهم من يعطون بسالم ،
والمهم معمودية لهم !

وهناك الذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم في عطاءهم ،
ولا يتطلبون فرحاً ، ولا يرغبون في إذاعة فضائلهم ،
هؤلاء يعطون بما عندهم كما يعطي الريحان عبير العطر في
ذلك الوادي !

بمثل أيدي هؤلاء يتكلم الله ، ومن خلال عيونهم يتسم
على الأرض !

جميل أن تعطي من يسألك ما هو في حاجة إليه ،
ولكن أجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت
تعرف حاجته به ، فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء ،
يكون له فرح بسعيه إلى من يتقبل عطاياه ، والاهتداء إليه
أعظم مما بالعطاء نفسه !

وهل في ثروتك شيء تقدر أن تبقية لنفسك ، فإن
كل ما تملكه اليوم ، سيتفرق ولا شك يوماً ما ، لذلك اعط
منه الآن ، ليكون فضل العطاء من فصول حياتك أنت
دون ورثتك !

وقد طالما سمعتك تقول متبجحاً : « إنني أحب أن
أعطي ، ولكن المستحقين فقط ! » .
فهل نسيت يا صاح ، أن الأشجار في بستانك لا تقول

قولك ، ومثله القطعان في مراعيك ؟
فهي تعطي لكي تحيا ، لأنها إذا لم تعطه عرضت حياتها
للتهلكة .

الحق أقول لك : إن الرجل الذي استحق أن يتقبل
عطية الحياة ، ويتمتع بأيامه ولياليه ، هو مستحق لكل
شيء منك .

والذي قد استحق أن يشرب من أوقيانوس الحياة ،
يستحق أن يملأ كأسه من جدولك الصغير . . . لأنه أي
صحراء أعظم من الصحراء ذات الجراءة والجسارة على قبول
العطية بما فيها من الفضل والمنة ؟

وأنت من أنت ! حق أن الناس يجب أن يمزقوا
صدورهم ، ويحسروا القناع عن شهامتهم وعزة نفوسهم ،
لكي ترى جدارتهم لعطائك عادية ، وأنفسهم مجردة عن
الحياة ؟

فانظر أولاً هل أنت جدير بأن تكون معطاء وآلة العطاء !
لأن الحياة هي التي تعطي للحياة ، في حين أنك وأنت
الفخور بأن قد صدر العطاء منك . لست بالحقيقة سوى
شاهد بسيط على عطائك .

أما أنتم الذين يتناولون العطاء والإحسان ، وكلكم
منهم فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل لئلا تضعوا
بأيديكم نيراً ثقيلاً الحمل على رقابكم ورقاب الذين أعطوكم .
بل فلتكن عطايا المعطي أجنحة ترتفعون بها معه ،

لأنكم إذا أكثرتم من الشعور بما انتم عليه من الدين ،
فإنكم بذلك تظهرون الشك والريبة في أريحية المحسن ،
الأرض السخية أمه ، والرب الكريم أبوه !

الصدقة



إن صديقك هو كفاية حاجاتك ، هو حقلك الذي تزرعه
بالمحبة وتحصده بالشكر ، مائدتك وموقدك ، لأنك تأتي
إليه جائعاً ، وتسعى وراءه مستدفئاً ، فإذا أوضح لك
صديقك فكره ، فلا تخش أن تصرّح بما في فكرك من
النفى أو تحتفظ بما في ذهنك من الإيجاب .

وإذا صمت صديقك ولم يتكلم ، فلا ينقطع قلبك عن
الإصغاء إلى صوت قلبه ، لأن الصداقة لا تحتاج إلى الالفاظ
والعبارات في انماء جميع الافكار والرغبات والتمنيات ، التي
يشارك الأصدقاء بفرح عظيم في قطف ثمارها اليانعات (١) ،
وإن فارقت صديقك فلا تحزن على فراقه ، لأن ما تتمشقه
فيه أكثر من كل شيء سواه ، ربما يكون في حين غيابه
أوضح في عيني محبتك منه في حين حضوره ، لأن الجبل

(١) اليانعات : الناضجات .

يبدو للمتسلق له ، أكثر وضوحاً وكبراً من السهل البعيد ،
ولا يكن لكم في الصداقة من غاية ترجونها غير ان تزيدوا
في عمق نفوسكم ، لأن المحبة التي لا رجاء لها سوى كشف
الغطاء عن اسرارها ، ليست محبة بل هي شبكة تلقى في
بحر الحياة ، ولا تمسك إلا غير النافع .

وليكن أفضل ما عندك لصديقك ، فإن كان يجدر به
أن يعرف جزر حياتك ، فالأجدر بك أيضاً أن تظهر له
مدىها ، لأنه ماذا ترجي من الصديق الذي تسعى إليه
لتقضي معه ساعاتك الممدودة في هذا الوجود ؟

فاسع بالأحرى إلى الصديق الذي يحيي أيامك ولياليك ،
لأن له وحده قد اعطي أن يكمل حاجاتك لا لفراغك
ويبوستك ، وليكن ملاك الأفراح واللذات المتبادلة مرفوعاً
فوق حلاوة الصداقة ، القلب يجد صباحه في الندى العالق
بالصغيرات ، فينتمش ويستعيد قوته ...



ابن الفارض



كان عمر بن الفارض شاعراً ربانياً . وكانت روحه
الظمآنة تشرب من خمرة الروح ، فتسكر ثم تهيم ساجدة ،
مرفرفة في عالم المحسوسات ، حيث تطوف أحلام الشعراء
وأميال العشاق وأمانى المتصوفين . ثم يفاجئها الصحو فتعود
إلى عالم المرثيات ، لتدوّن ما رأت وسمعت بلغة جميلة مؤثرة ،
لكنها غير خالية في بعض الأحيان من ذلك التعقيد اللفظي
المعروف بالبديع^(١) ، وهو في شرعي ليس بالبديع .
ولكن إذا وضعنا صناعة الفارض جانباً ، ونظرنا إلى
فنه المجرد ، وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسية ،
وجدناه كاهناً في هيكل الفكر المطلق . أميراً في دولة
الخيال الواسع . قائداً في جيش المتصوفين العظيم - ذلك
الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدينة الحق - المتغلب في
طريقه على صغائر الحياة وتوافها . المحقق أبدأً بهيبة الحياة
وجلالها .

وقد عاش ابن الفارض في زمن خال من التوليد العقلي ،

(١) البديع : علم تعرف به وجوه تحسين الكلام .

والإحداث النفسى ، بين قوم منصرفين إلى التقليد والتقليد ، مشغولين . باستفسار واستيضاح ما تركه الإسلام من الأمجاد الأدبية والفلسفية . غير أن النبوغ - والنبوغ معجزة إلهية - قد صار بشاعر الحموي ، فتنحى عن زمنه وعن محيطه ، واختلى بذاته لينظم ما يتراءى لذاته شعراً أبدياً ، يصل ما ظهر من الحياة بما خفي منها .

ولم يتناول الفارض مواضيعه من مجريات يومه ، كما فعل المتنبي ، ولم تشغله معميات الحياة وأسرازها ، كما شغلت المعري ، بل كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا ، ويفلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية .

هذا هو ابن الفارض ، روح نقية كأشعة الشمس ، وقلب متقد بالنار ، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال ، وهو إن كان دون الجاهليين عزمًا وأقل من المولدين ظرفاً ، ففي شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون .



مصرع البطل



ما جاء الليل حتى انهزم الأعداء وفي ظهورهم طعن السيوف
ووخز الرماح . فعاد الظافرون حاملين ألوية الفخر منشدين
أهازيج النصر على وقع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على
حصباء (١) الوادي .

أشرفوا على جانبه وقد طلع القمر من ثنايا الجبل ،
فظهرت صخوره الباسقة شائخة كصفوف القوم ، وبانت
غابة الأرز بين تلك البطاح كأنها وسام مجد أثيل (٢) ،
علقته الأجيال الغابرة على صدر لبنان .

ظلوا سائرين ، وأشعة القمر تلمع على أسلحتهم ،
والكهوف البعيدة تردد تهليلهم ، حتى إذا بلغوا جبهة
المقبة أوقفهم سهيل حصان واقف بين الصخور الرمادية
كأنه جزء منها . فاقربوا منه مستطلعين وإذا بجثة هامدة
ملقاة على أديم التراب (٣) ، المختلط بنجيع الدماء (٤) ،
فصرخ زعيم القوم قائلاً : « أروني سيف الرجل لأعرف

(١) الحصباء : الحصى . (٢) المجد الأثيل : الشرف الأصيل .

(٣) أديم التراب : وجهه ، أو ما ظهر منه .

(٤) النجيع من الدم : ما كان مائلاً الى السواد .

صاحبه « فترجل بعض الفرسان ، وأحاطوا بالصريع مستفسرين ، وبعد هنيهة التفت أحدهم الى الزعيم وقال بصوت أجش : « لقد عانقت أصابعه قبضة السيف فمن العار أن أنزعه » وقال آخر : « لقد تجمدت الدماء على الكف والقبضة ، وأوثقت الشفرة بالزند فصيرتها عضواً واحداً » .

فترجل الزعيم واقترب من القتل قائلاً : « أسندوا رأسه ودعوا أشعة القمر ترينا وجهه » ففعلوا مسرعين ، وبان وجه المصروع من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والتجلد ، وجه فارس قوي يتكلم صامتاً . وجه متعجبهم فرح ، وجه من لقي العدو عابساً ، وقابل الموت باسمًا . وجه بطل حضر معركة ذلك النهار ، ورأى طلائع الاستظهار ، ولكنه لم يبق لينشد مع رفاقه أناشيد الظفر .

ولما أزاخوا « كوفيته » ومسحوا غبار المعمة (١) عن وجهه المصفر ، ذعر الزعيم وصرخ متوجعاً : « هذا ابن الصعيبي فيا للخسارة ! » .

فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، وجمدوا في أماكنهم ، وكان عقولهم السكرى بخمرة النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت أن خسارة هذا البطل هي أجسم (٢) من مجرد التغلب ، وعزُّ الانتصار . وبهتوا كالتأثيل ، وقد أوقفهم

(١) المعمة : المعركة . (٢) أجسم : أعظم .

هول المشهد ، وأيبس ألسنتهم فسكتوا . وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الأبطال ، فالبكاء والنحيب حري (١) بالنساء ، والصراخ والعيويل خليق بالأطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت هيبة ووقاراً - ذلك السكوت الذي يقبض القلوب القوية ، مثلما تقبض نخالب النسر على عنق الفريسة - ذلك السكوت الذي يترفع عن الدموع ، فيزيد ترفعه البلية هولاً وقساوة ، ذلك السكوت الذي يهبط بالنفوس الكبيرة من قمم الجبال إلى سفوحها ، ذلك السكوت الذي يعلن مجيء العاصفة ، وان لم تجيء كان هو نفسه أشد فعلاً منها .

خلعوا أثواب الفتي المصروع ، ليروا ما فعل الموت به ، فبانَت كلوم الشفار في صدره وظهرت أفواه مزبدة تتكلم في هدوء ذلك الليل عن هم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا فاحصاً ، فوجد دون سواء منديلاً مطرزاً مربوطاً حول زنده ، فتأمله سرّاً وكأنما عرف اليد التي غزلت حريره ، والأصابع التي حاكت نخيوطه ، فستره طي درعه ، وتراجع قليلاً إلى الوراء حاجباً وجهه بيده المرتعشة . تلك اليد التي كانت تزيح بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت ، وارثجفت ، وصارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشي

(١) حري : جدير .

منديل عقدت أطرافه أصابع عذراء مستهامة حول زنده
ففي جاء لبشهاد يوم الكريهة مدفوعاً ببسالته فصرع ،
وسوف يرجع إليها محمولاً على أكف رفاقه .

وبينا نفس زعيم القوم كانت تتراوح بين مظالم الموت
وخفايا الحب ، قال أحد الواقفين : تعالوا نحفر له قبراً
تحت تلك السنديانة فتشرب أصولها من دمه ، وتتغذى
فروعها من بقاياها ، فتزيد قوة ، وتصير خالدة ، وتكون
له رمزاً ، فتمثل هذه الطلول ^(١) بطشه وبأسه .

فقال آخر : « لنجمله الى غابة الأرز ، ونقبره على
كثب ^(٢) من الكنيسة ، فتظل عظامه مخفورة ^(٣) في ظل
الصليب أبد الدهر . »

فقال آخر : « اقبروه هنا ، حيث اختلط التراب
بدمائه ، واتركوا سيفه في يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه ،
واعقروا حصانه ^(٤) على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنسه في
هذه الوحدة . »

أجاب آخر : « لا تلحدوا سيفاً مخرجاً بدم الأعداء ،
ولا تعقروا حصاناً خاض المنايا ، ولا تتركوا في الوعر
سلاحاً تعود هز الأكف وعزم السواعد ، بل احملوها الى
ذويه لأنها أفضل ذخير وخير ميراث . »

(١) الطلول - جمع طلل - : وهو ما بقي من الآثار .

(٢) على كثب : أي على قرب .

(٣) مخفورة : أي محروسة .

(٤) عقر الحصان : ذبحه .

أجاب آخر : « تعالوا نجثو حوله مصلين ، لتغفر له السماء ، وتبارك اقتصارنا . »

أجاب آخر : « ولنرفعه على الاكتاف جاعلين له نعشاً من الرماح والتروس ، فنطوف به في هذا الوادي ناشدين أهازيج النصر ، فيشاهد أشلاء (١) الاعداء ، وتبتسم جراحه قبل ان يخرسها التراب . »

أجاب آخر : « تعالوا نعليه سرج جواده ، ونسندة يجهاحم القتلى ، ونقلته ربحه (٢) ، وندخله الأحياء ، ظافراً ، فهو لم يستسلم الى المنية إلا بعد ان حملها من أرواح الاعداء حملاً ثقيلاً . »

أجاب آخر : تعالوا نودعه أصل هذا الجبل (٣) ، فيكون صدى الكهوف له نديماً ، وخرير السواقي مؤنساً ، فترتاح عظامه في مفازة (٤) ، يكون وطء أقدام الليالي عليها خفيف الوقع . »

أجاب آخر : « لا تغادروه هنا في وحشة مملة ، ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله الى مقبرة القرية ، فيكون له من أرواح أجدادنا رفاقاً يناجونه في سكينة الليل ، ويقصون عليه أخبار حروبهم ، وأحاديث وقائعهم . »

فتقدم الزعيم إذ ذاك الى وسط رجاله ، وأسكتهم بإشارة ، ثم قال متنهداً : « لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا

(١) أشلاء : بقايا .

(٢) قلته ربحه : حمله إياه .

(٣) أصل الجبل : سفحه .

(٤) المفازة : الفلاة لا ماء فيها .

على مسامع روحه الحائمة حول رؤوسنا أخبار السيوف
والرماح ، بل هلموا نحمله ببطء وهدوء الى مسقط رأسه ،
ففي ذلك الحي نفس ساهرة تترقب عودته . نفس حبيبتة
تنتظر رجوعه من بين الأسنة لتزفه اليها كيلا تحرم نظرة من
وجهه ، وقبلة من جبينه .

حملوه على المناكب مطأطي الرؤوس ، خاشعي الابصار ،
وساروا به الهوينا يتبعهم حصانه الكئيب ، يجر مقوده على
الارض ، ويصل من حين الى آخر ، فتجيبه الكهوف بصداها
كان للكهوف أفئدة تشعر مع الحيوان بشدة الضيم والأسى .
بين أضلع هذا الوادي ، حيث أشعة القمر تسترق
خطواتها ، سار موكب النصر وراء موكب الموت ، وقد
مشى أمامها طيف الحب جاراً أجنحته المكسورة ...

الكهال



تسألني يا أخي : متى يصير الانسان كاملاً ؟ فاسمع
جوابي : يسير الانسان نحو الكهال عندما يشعر بأنه هو
هو الفضاء ولا حد له ، وهو هو البحر بدون شواطئه ،
وأنة النار المتأججة دائماً ، والنور الساطع أبداً ، والأرياح
اذا هبتت او اذا سكنت ، والسحب اذا أبرقت او أرعدت
وأمرت ، والجداول اذا ترنمت او ناحت ، والأشجار اذا
أزهرت في الربيع او تجردت في الخريف ، والجبال اذا
تعالّت ، والأودية اذا انخفضت ، والحقول اذا خصبت او
أجدبت .

اذا شعر الانسان بكل هذه الأمور ، بلغ منتصف
طريق الكهال ، أما اذا شاء بلوغ محجة الكهال فعليه ان
شعر بكيانه ، ان يشعر بأنه الطفل المتكل على أمه ،
والشيخ المسؤول عن عيانه ، والشاب الضائع بين أمانيه
وغرامه ، والكهل الذي يصارع ماضيه ومستقبله ، والعابد
في صومعته ، والمجرم في سجنه ، والعالم بين كتبه
وأوراقه ، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره ، والراهبة

بين أزهار إيمانها وأشواك وحشتها ، والمومس بين أنياب
ضعفها ومخالب حاجتها ، والفقير بين مرارته وامتناله ،
والغني بين مطامعه وادعائه ، والشاعر بين ضباب أمسائه
وشعاع أسحاره .

إذا استطاع الانسان ان يختبر ويعلم جميع هذه الأمور ،
يصل الى الكمال ، ويصير ظلاً من ظلال الله .

المعرفة ونصف المعرفة



جلست أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة
نهر كبير ، فجاءت موجة هوجاء ، واختلطت القرمة الى
وسط النهر ، فحملتها المياه ، وسارت بها ببطء مع مجرى
النهر ، فرقصت الضفادع فرحاً بهذه السباحة اللطيفة فوق
المياه ، لأنه لم يسبق لمن ان أبحرن من ذي قبل .
وبعد هنيهة ، صرخت الضفدعة الاولى قائلة : « يا لها
من قرمة عجيبة غريبة ! تأملن أيتها الرفيقات كيف تسير
مثل سائر الأحياء ، والله إنني لم أسمع قط بمثلاً ! » .
فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت : « ان هذه القرمة لا
تمشي ولا تتحرك أيتها الصديقة ، وهي ليست عجيبة

غريبة كما توهمت ، ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها الى البحر ، تحمل هذه القرمة معها وتحملنا نحن أيضاً بانحدارها! .
 فقالت الضفدعة الثالثة : « لا لعمرى ! فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب ، فإن القرمة لا تتحرك ، والنهر أيضاً لا يتحرك مثلها ، وإنما الحقيقة أن فكرنا هو المتحرك فينا ، وهو الذي يقودنا الى الاعتقاد بحركة الأجسام الجامدة »

القديس



زرت في حدائق قديساً في صومعته الهادئة ، القائمة بين التلال ، وبيننا كنا نبحث ماهية الفضيلة ، أطل علينا لص وهو يتعرج على الجانبين فوق الروابي ، والتعب قد أعياه .
 وعندما وصل الى الصومعة جثا على ركبتيه أمام القديس ، وقال له : « أيها القديس الشفيق ، قد جئتك طالباً تعزية ، فإن آثامي قد تعالت فوق رأسي » .
 فأجابه القديس قائلاً : « يا بني ، إن آثامي أنا أيضاً قد تعالت فوق رأسي » .

فقال له اللص : « عفوك يا سيدي ، فأنا سارق وقاطع طريق ، ويستحيل أن تكون مثلي ، » .

فأجابه القديس : « إنك واهم يا بني ، فإنني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق ، » .

فقال له اللص : « ماذا تقول يا سيدي ؟ فأنا قاتل ! ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في أذني ، » .

فأجابه القديس قائلاً : « وأنا أيضاً قاتل يا بني ، وفي أذني تصرخ دماء الكثيرين ، » .

فقال له اللص : « يا سيدي أنا قد ارتكبت شروراً لا تحصى ، وجرائم لا عداد لها ، فكيف تساوي نفسك بي ، وأنت رجل الله البار ؟ ، » .

فأجابه القديس وقال : « إنك لو عرفت كثرة شروري لما ذكرت شرورك ، » .

فانتصب اللص اذ ذاك ، وحدث بالقديس طوبلاً ، وملاً عينيه دمهشة وغبابة ، ومضى من غير أن ينبس بشفة .

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة ، فالتفت آنئذ إلى القديس وسألته قائلاً : « ما دعائك إلى أن تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قط يا سيدي ؟ ألا ترى أن هذا الرجل قد مضى ، ولم يعد بعد من المصدقين بدعوتك ، والمؤمنين ببشارتك ؟ ، » .

فأجاب القديس وقال : « أجل يا بني فإنك بالصواب حكمت بأنه لم يعد من المصدقين بدعوتي ، ولكن الحق

أقول لك : إنه قد انصرف والعزاء يملأ فؤاده .
وفي تلك اللحظة بمعنا اللص يغني من بعيد ، وكانت
الأودية تردد صدى صوته الممتلئ بالمسرة والتعزية .

الطمع



رأيت في جولاتي في الأرض وحشاً على جزيرة جرداء ،
له رأس بشري ، وحوافر من حديد .
وكان يأكل من الأرض ، ويشرب من البحر بلا انقطاع ..
فوقفت أراقبه ردحاً^(١) ، ثم دنوت منه وسألته قائلاً : ألم
تبلغ كفافك بعد ؟ أليس لجوعك من شبع ، او لظمئك من
ارتواء ؟ .
فأجابني وقال : « نعم ، نعم ، قد بلغت كفاي^(٢) ،
بل قد مللت الاكل والشرب ، ولكنني أخاف ان لا تبقى
إلى غد أرض لا كل منها ، وبحر لأرتوي من مائه » .

(١) أراقبه ردحاً : أي وقتاً طويلاً .

(٢) الكفاف من الرزق : ما كفى عن الناس وأغنى .

الشعراء



كان أربعة من الشعراء جالسين إلى خيوان^(١) ، وكان
على الخيوان إطاء من الخمر .
فقال الشاعر الأول : « يخيل إليّ أني أرى عبير هذا الخمر
مرفوعاً في الفضاء كسحابة من الطيور في غاب مسحور » .
فرفع الشاعر الثاني رأسه ، وقال : « أما أنا ، فإني
اسمع بأذني الباطنة هذه الطيور تغرد ، فتأخذ ألقانها بمجامع
قلبي^(٢) ، فتأسره الزنبقة والنحلة بين وريقاتها » .
فأغمض الشاعر الثالث عينيه ، ورفع ذراعه ، وقال :
« أما أنا فإني أكاد ألامسها بيدي ، وأشعر بحفيف أجنحتها
يهب في وجهي ، كأنه لهاث جنية نائمة » .
فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك ، ورفع الأناء بيديه ، وقال :
« عفوكم أيها الإخوان ، فإني شحيح البصر ، ثقيل السمع ،
كليل اللمس^(٣) ، فليس في طاقتي أن أراها ، ولا أن

(١) الخيوان : ما يوضع عليه الطعام ليؤكل .

(٢) مجامع القلب : أي كل أجزائه .

(٣) كليل اللمس : أي ضعيفه .

أشعر برقرفة أجنحتها ، أواه ! إنني لا أشعر بغير الخمرة ذاتها
ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ حواسي الخاملة ، وتشعل
روحي بنار بركتكم العلوية وروحكم الطهور ، .
ثم وضع إناء الخمر على شفتيه ، وأتى على آخر نقطة فيه .
أما الشعراء الثلاثة رفقائه ، فكانوا ينظرون إليه بدهشة
فاتحين أشداقهم ، وفي عيونهم غلة لا تروى لهبتها ، وبفضة
لا تخمد حديثها .

الخلافات



حدث عندما كانت ملكة عيشانا في فراش مخاضها والملك
وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة ، وهم
جالسون على أنحر من الجمر في قاعة الثيران المجنحة (١) انه
دخل عليهم فجأة رسول مستعجل ، وركع على قدمي
الملك وقال : « أيها الملك المعظم ! إنني أحمل لكم بشائر

(١) كان عند قدماء الآشوريين : إله له رأس إنسان ، وجسم ثور ،
وأجنحة طائر ، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر ، ويحسمه عن العزم ،
وبأجنحته عن الخيال ، وهذا ما عناه المؤلف بقوله (قاعة الثيران المجنحة) .

الفرح وللمملكة ولعبيد الملك أجمعين ، ذلك أن محراب (١)
الجائر عدوك اللدود ملك البترون قد قضى نحبه .

فلما سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى ،
نهضوا منتصبين على أقدامهم ، وهلوا فرحين ، لأنه لو
طال أجل محراب الجبار سنة واحدة ، لغزا أرض
عيشانا ، وقاد سكانها عبيداً الى بلاده .

وفي تلك اللحظة ، دخل طبيب البلاط إلى قاعة
الثيران المهنحة ، ودخلت وراءه قابضة الملكة . فانحنى
الطبيب باحترام للملك ، وقال له : « ليعش سيدي الملك
إلى الأبد ، فها قد رزقك الله طفلاً ذكراً سيخلفك على
العرش ، ويخلد حكمك على شعوب عيشانا عديد السنين . »
فتهلل الملك ، وطارت روحه فرحاً ، لأنه في اللحظة
الواحدة ، هلك عدوه ، وتأسلت الخلافة في نسله .

وكان في مدينة عيشانا في ذلك العهد نبي حق ، ولكنه
كان فتى جريء القلب ، بأسل الروح .
فأمر الملك أن يحضر النبي بين يديه في تلك الليلة ،
فأحضر في الحال .

فقال له الملك : « تنبأ أيها النبي ، وقل لنا كيف
سيكون مستقبل ابني الذي ولد الآن للمملكة . »
فأجابه النبي على الفور قائلاً : اصغ أيها الملك ! فأنبئك

(١) المحراب : صاحب الحرب والشجاع ، ولذا اتخذ الكاتب
اسماً للملك .

الصدق عن مستقبل ابنك الذي ولد لك اليوم ، فإن روح عدوك - عدوك اللدود : الملك محراب - الذي مات في مساء أمس ، لم تلبث على متن (١) الأرياح سوى ليلة واحدة ، وقد هبطت إلى الأرض ثانية تطلب جسداً تأوي إليه ، فلم ترَ أفضل من جسد ابنك هذا الذي ولد لك اليوم ، فتقمصته .

فاستشاط (٢) الملك غيظاً ، واستل سيفه ، وقطع رأس النبي بيده ، والزبد يخرج من فمه غضباً .
وما قد مرت الأيام ، وتصرمت (٣) حبال السنين على تلك الحادثة ، وحكام عيشانا يسرون (٤) واحدهم للآخر قائلين : « أما قيل لنا في القدم وأثبتت الأيام ذلك المقول أن عيشانا يحكمها عدوها ؟ ! » .

(١) المتن : الظهر .

(٢) استشاط الملك غيظاً : أي امتلأ .

(٣) تصرمت : مضت .

(٤) يسرون : أي يقولون بسرية وكتان .

الملك الناسك



خبرت ان فتى يعيش في غابة بين الجبال ، وأنه كان
فيما مضى ملكاً على بلاد واسعة الأرجاء في عبر النهرين .
وقيل لي أيضاً : إن هذا الفتى قد تخلى بملء اختياره عن
عرشه ، وعن ارض اجماده ، وجاء ليستوطن القفار .
فقلت في نفسي : « لأسعين إلى ذلك الرجل معيماً ،
واقف على ما في قلبه من الأسرار ، لأن من يتنازل عن
الملك فهو بلا شك أعظم من الملك .
فذهبت في ذلك النهار بعينه إلى الغاب ، حيثما كان
قاطناً ، فوجدته جالساً في ظلال سرورة بيضاء ، وبيده
قصبة كان ممسكاً بها ، كأنما هي صولجانه . فحييته كما
يحيتى الملوك . وبعد أن ردّ التحية التفت إليّ وقال بلطف :
« ما عساك تبتغي في هذا الغاب الأعزل يا صاحبي ، أجتت
تنشد ذاتاً ضائعة في الاظلال الخضراء ، أم هي عودة إلى
مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار ؟ » .
فأجيبته قائلاً : « إنني ما نشدت إلاك ، ولا شاقني إلا
الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال مملكتك ، الكبيرة ،
بهذه الغابة الحغيرة . »

فقال : « وجيزة قصتي ، فقد انطفأت فتاقيع غروري
فجأة وإليك حكايتي :

بينما كنت جالساً إلى نافذة في قصري ، كان وزير ي
يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي . وعندما صارا على
مقربة من نافذتي ، سمعت الوزير يتكلم عن نفسه قائلاً :
« أنا مثل الملك أتعطش للخمرة المعتقة ، وأعشق جميع
ضروب المقامرة ، ويشور بي نائر الغضب كسيدي الملك » .
ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار ، ولكنها ما لبثا
أن عادا بعد برهة ، وإذا بالوزير يتكلم عني في هذه
المررة قائلاً : « إن سيدي الملك مثلي يستحم ثلاثاً في النهار » .

وسكت لحظة ثم زاد قائلاً : « في عشية ذلك اليوم
تركت بلاطي ، ولا شيء معي سوى عباءتي ، لأنني لم
أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم يدعون نقائصي
لأنفسهم ، ويعزون فضائلهم إلي » .

فقلت له : « ما أغرب قصتك وما أعجب أمرك ! » .

فأجابني قائلاً : « ليس هنالك من غرابة يا صاحبي .
فقد قرعت ابواب سكينتي طامعاً منها بالكثير ، فلم يكن
لك منها سوى اليسير ، بربك قل لي : من لا يستبدل
ملكته بغاب تترنم فيه الفصول ، وترقص طروبة أبداً .
كثيرون هم الذين تركوا بمالكهم ليستبدلوها بأدنى مراتب
الوحدة والتمتع بحياة العزلة السعيدة ؟ وكم هنالك من نسور

هبطت من جوتها الأعلى لتعيش مع المناجذ^(١) في أنفاقها الصامتة ، فتنفهم أسرار الغبراء^(٢) ، بل ما أكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لكي لا يظهروا للناس انهم بعيدون عن لا أحلام في نفوسهم ، والذين يعتزلون مملكة العري ساترين عرية نفوسهم ، حتى لا يستحي الأحرار من النظر إلى الحق عارياً ، والتأمل في الجمال سافراً . وأعظم من هؤلاء جميعهم ، ذاك الذي يعتزل مملكة الحزن ، لكي لا يظهر للناس معجباً مفاخرأ بكآبته .

ثم نهض متوكئاً على قصبته ، وقال : « ارجع الآن إلى المدينة العظمى اوقف بأبوابها مراقباً جميع الداخلين إليها والخارجين منها . واعنَ بأن تجد الرجل الذي زعم أنه ولد ملكاً فهو بدون مملكة . والرجل الذي زعم أنه مسود بجسده فهو سائد بروحه - ولكنه لا يدري بذلك ولا رعاياه يدرون بسيادته - والرجل الذي يبدر للعيان حاكماً ، ولكنه في الحقيقة عبد لعبيد عبيده . »

وبعد أن فرغ من كلامه ، نظر إليّ ، فلاححت لي منه ابتسامة خلقتها ألف فجر وفجر .

ثم تحول عني متغلفلاً في قلب الغاب .

أما أنا فرجعت إلى المدينة ، ووقفت بأبوابها أراقب

(١) المناجذ - جمع خلد - وهو من القواضم ، يعيش تحت الأرض وليس له عينان ولا أذنان .

(٢) الغبراء : الأرض .

العابرين بي ، على نحو ما قال لي . وما أكثر الملوك الذين
مرت اظلالهم فوقى ، منذ ذلك اليوم حتى الساعة ، وأقل
الرعايا الذين مر فوقهم ظلي .

فلسفة الابتسامة



الامرأة كالغرفة ، لا أقصد كل الغرف ، بل تلك الغرفة
الدافئة التي تستميل الانسان حينما يدخل فيشعر برفاهيتها
وموافقتها له ، حتى ينسى كونه غريباً ، وأنه ضيف يسمع
كلمات التأهيل فيظن نفسه في بيته ، هكذا الامرأة ، إنها
تبت ما حولها سحراً وبشاشة ، فيسرع القوم في سكب
عواطفهم أمامها .

لم يكتب أحد حتى الآن تاريخ الابتسامة ، والسبب
في ذلك أن النساء اللواتي يقدرن على كتابته لا يردن
أن يكتبنه ، بل يحافظن على كتابته دفناً لإفشاء أسرار^(١)
جنسهم ، أما الرجال فمن أين يستطيعون إدراك أسرار
عميقة كهذه ، فهم يجهلون تماماً أسباب الابتسامة وأهميتها ،
كما يجهلون الأشياء المتعلقة بالنساء وحياتهن الجنسية الداخلية .
قد حدثت بنفسي كثيراً من مشاهير الأطباء
الاختصاصيين في أمراض النساء والدارسين طبائع الجنس

(١) إفشاء الأسرار : اذاعتها ، ونشرها .

اللطيف ، فكنت أظهر لهم تعجبي مما يعرفونه عن أسرار النساء ، ولكنني كنت أضحك في سري على جهلهم وقلة ما يعلمونه ، إنهم يحسنون شق الجسوم للجراحة ، كما يصنع الأطفال إذ يترون (١) بطون لعيباتهم لينظروا ماذا في داخلها ، ثم يخيطون تلك الجسوم بالإبرة والخيط .

مهما يكن الطيب النسائي ضليعاً^(٢) وحاذقاً، فلا يستطيع أن يكشف ما كتمته النساء في ما بيدهن . قد يفهم هذا الأمر كل من يعلم أن بين الجنسين اللطيف والنشيط عداوة داخلية، وقوة هائلة لا تغير ، لأن الجنسين لم يتفاهما حتى الآن . لو أخذنا كل الكلمات من معاجم اللغات ، واجتهدنا أن نعبر بها ، لما استطعنا أن نجسم بها ابتسامة واحدة . الابتسامة عند المرأة كالعلامة السرية عند أبناء الماسونية^(٣) كل النساء تستطيع استعمالها بجرأة ، لأنه ليس أحد سواهن يستطيع فهمها .

الابتسامة لغسة لا يعرفها سوانا ، الابتسامة كالمراة ، تمكس فضائل كثيرة وفراغاً عظيماً ، واللبيبات منا يستترن وراء الابتسامة المصطنعة .

الرجال عموماً لا يتقنون فن الابتسام ، بل لا يستطيعون ان يبتسموا ، فهم ينظرون إما بانمطاف قليل أو كثير ،

(١) بتره : قطعه أو شقه .

(٢) الضايح بالأمر : القوي عليه .

(٣) الماسونية : معناه البنائون الأحرار ، وهم جمعية سرية ، يتعاهد

المنتعمون اليها على حفظ أسرارها . يتخذون آلات البناء شعاراً ، كالطرفة والبيكار .

أو بوداعة قليلة أو كثيرة ، أو بانشفاف قليل أو كثير ،
فليس عندهم من الدهاء ما يمكنهم من أن يبتسموا ابتسامة
حقيقية .

أما النساء اللاتي يتنكرن ببرقع^(١) الابتسامة لا لرصانة
وحسن تعقل ، فأولئك يخن أنفسهن ، ويبجن بأسرارهن ،
وقد رأيت نساء كثيرات من هذا النوع ، يكشفن كل ما
في أنفسهن بابتسامة واحدة .

لا أحد منا يفكر بصوت عال ، ولكن كثيرات يبتسمن
بدون ارتباك ، والبرهان الذي يشهد لنا بقوة تماضد^(٢)
وتكافل جنسنا ، هو أننا نلقي ابتسامتنا يمنة ويسرة ،
بدون أن نخشى انفضاح أمرنا أو نفاذ دهائنا .

هل حدث أن امرأة فضحت سر جنسها ؟ كلا ، أما
سبب هذه الأمانة ، فهو ليس في شرف العواطف ، بل في
الخوف من أن تفضح المرأة سرها بنفسها ، لأن سر
جنسها هو سرها .

ولنفرض أن امرأة أرادت أن تكشف كل نفسها ،
فماذا يصير حينئذ ... قد فكرت كثيراً قبل الآن في
هذا الأمر ، ولم أزل جاهلاً ماذا أقول ، ولكنني أظن ان
تلك المرأة تضرب جنسها الضربة القاضية وتسبب له
ضرراً لا يحصى .

(١) البرقع : الفناع . (٢) التماضد : التمازج .

قد اختلط فينا الخير والشر ، والاخلاص والتدليس^(١) حتى صعب جداً أن يفك أحد خيوطها المتعقدة ، ويمسك بأطرافها ، ولا يستطيع أحد صنع ذلك إلا إذا كان ذا شعور أدق من الدقيق ، وبديهي أن الرجل لا يصلح لامر كهذا .

أذكر رجلاً ذا نفس شريفة وميل إلى الخير ، يعتقد بمقدرته كل الاعتقاد ، خطر له أن يرد إلى الطريق القويمة غاوية^(٢) قد توغلت في شرور السقوط ، فاخذها إلى بيته وعاملها كأخت له ، كان يحترمها ، ويكرس لها كل أوقات فراغه ، ويشق بها كل الوثوق ، فتغيرت الفتاة في بادئ الأمر ، وافتخر الرجل بذلك التغيير الذي طرأ عليها ، وصارت تلك التي كانت بالامس غاوية ، من أعف الفتيات ، ملأ قلبها شكر من أحسن إليها ، أمينة خجولة ، فعزم منقذها على أن يتزوجها ، ولكنه عاد إلى منزله في أحد الأيام ، فوجد الفتاة قد هربت ، وتركت له ورقة مكتوب عليها : أشكرك جداً ، ولكنني ضجرت منك !

وكان ذلك مسيئاً من أنه لم يدرك نفسها في كل تلك المدة التي كان عائشاً فيها معها ، ولم يفهم أنه من الواجب عليه أن يعرض عليها ما انتزعه من حياتها بأشياء تقوم مقامها سوني اللطف والمؤانسة .

(١) التدليس : الحياكة ، والخذاعة .

(٢) "ماوية" : التي ضلت الطريق القويم ، وانغمست في الشرور والآثام .

شكوى القبور



مر ملاك في المقبرة الساكنة ، وكان حزينا حزنا من يرى الموت قريبا ، وكان على الأرض ليل وربيع ، وأريج أشجار الأزدرخت يتدفق منتشرا فوق المقبرة . فبكت القبور ، وتألقت نفس المسجونين فيها ، لأنها لم تكن مستريحة ، بل كانت تحلم في نومها بآمال بعيدة فقال الملاك : ناموا ، فإن القبور أولى لكم ، ففيها سكون وراحة ، لماذا تشكون ؟ أعل حياتكم كانت بلا مصائب ومتاعب ؟ ألم تتركها كالخيال ؟ هوذا كثير من الأحياء يتنهدون ويقولون : آه ما أحلى الموت ! فناموا ولا تذكروا الماضي ، ولا تأسفوا عليه فأجابت الاصوات من القبور باكية . على الأرض ربيع فلا نقدر ان ننام .

وقال واحد منها للملاك :

لقد وصل إلي أرج الأزهار مخترقا الثرى ، وأيقظني وأذكروني تلك التي كنت أحبها ، فاسمح لي أن أنهض وأفتش عنها تحت ظل شجرة الياسمين التي كنا نجلس تحتها سعيدين ، لعلني أرى شهتها وعينيها التي كنت أقبلها سابقا . قد كنت أظن أنني سألتقي بها بعد الموت ، ولكن قد خاب ظني ، وها أنا وحيد كما تراني في قبوري ، ولا

أستطيع المكوث في هذه الوحدة . فاسمح لي بالقيام !
فأجاب الملاك : إن التي أحببتها قد ماتت ، وشجرة
الياسمين التي تحتها السعادة قد يبست من أمد^(١) ، وقد
رأيت بعيني آخر زهرة منها تسقط إلى الأرض زاوية^(٢) فتم
ثم وطأ القبر بقدمه ، فخرج منه صوت شبيه بالأنين
وصمت .

فبكى قبر آخر وقال أسمع حفيف الأشجار وخرير
المياه ، فلا أستطيع النوم ، قد أخذت حيناً كنت حياً في
تأليف ترنيمة حب جميلة ، ولكنني مت قبل أن أكملها ،
وما أنا الآن بخيل لي اني أسمع حفيف الأوراق الحاناً
خفية مختلطة منها ، فاسمح لي أن أنهض لأكملها ، ومتى
أكملتها سأقدمها للورى ، فترنمها الأم الفتية على مهد^(٣)
طفلها ، وتنشدها الغادة العذراء في حضور خطيبها .

فقال له الملاك : إن ألحان ترنيمة قد ذهبت دون ان
يرجع لها صدى ، فنسيها الورى^(٤) ، وليست إلا الأثر
ذاكرة إياها ، ولذلك تسممها تعيدها فوق قبرك بحفيف
لطيف لكي تنام على الحانها ، وخطا الملاك ، ووطىء القبر
بقدمه^(٥) فتنهد الصوت الباكي وصمت

فبكى قبر ثالث وقال : إن القبر منير ، فلا أستطيع
النوم بسببه ، لأنني كنت عندما أرى النور في حياتي ، أندفع

(١) الأمد : الأجل .

(٢) زاوية : أي ذابلة .

(٣) مهد الطفل : سريره .

(٥) ووطىء القبر بقدمه : أي داسه .

(٤) الورى : الخلق .

بكليتي إليه لجماله ، وقد سمى الناس هذا النور باسماء عديدة ، غير أنني كنت أحبه في كل هيئاته ومظاهره ، غير مكترث بأسائه .

لما كنت طفلاً ، كانت أمي تقول لي : إني بعد الموت سوف أعاين^(١) ذلك النور إلى الأبد ، وكنت أصدقها ، ولكن هو ذا أنا في القبر تحيط بي ظلمة مدلهمة^(٢) ، ولست أرى النور ، فاسمح لي بالنهوض لعل أراه .

فصمت الملاك ، ولم يجب ببنت شفة .
فقال الصوت : أجبني أيها الملاك ، لعل النور قد انطفأ من علي وجه الأرض ، أجبني لعل أنام .
فلم يجب الملاك ، ولم يطأ الضريح بقدمه ؛ ولم يعز الباكي في قبره ؛ بل وقف حائراً ؛ وأطرق حزيناً ، لأن كلمات الملاحود الباكي وقع لها صدى في قلبه ؛ فشعر كشموره ، ولكنه لم يكن قادراً على إنهاضه من القبر

المدينة العظمى



السلم والهاوية لا نهاية لهما في الحياة ، لأن الدرجة الأولى منهما في المهد ، والدرجة الأخيرة في القبر ، أينما كان المرء إذن يرى كثيرين من الناس فوقه ، وكثيرين تحته ، وكلما ارتقى درجة في معالم الفوز والفلاح ، يسمع

(١) عاينه : رآه بعينه .
(٢) المدلهمة : الشديدة السواد .

اصواتاً بعيدة تدعوه إلى ما فوقها .
وكما في الناس كذلك في المدن ، فلا يحق للوندره ،
مثلاً ، ان تصعر خدما للقاهرة ، ولا للقاهرة أن تسمع
بأنفها (١) على بيروت ، لأن حسنات المدينة العظمى ، قد
تكثر في هذه وتقل في تلك .

المدينة العظمى هي التي لا تتداخل في شؤونها سلطة
أجنبية ، هي التي يكون كل امرئ فيها مثلاً للحرية
والإخاء ، وهي التي يتعلم الأولاد الاستقلال وعزة النفس
في مدارسها قبل كل العلوم ، وهي التي تكون الصداقة
فيها أمراً مقدساً ، والإخلاص محترماً كسر من الأسرار الإلهية .

قيل لبعض العرب : من سيدكم ؟

قالوا : فلان .

قيل : بم سادكم ؟

قالوا : احتجنا إلى علمه واستغنى عن دنيانا .

وقال سيد العرب لقومه : اعلموا أني ما سدت عليكم
حق صرت عبداً لكم ، أغدق (٢) على سائلكم ، وأصفح
عن جاهلكم ، وأحوط حريمكم ، وأدفع عن غريمكم ، فمن
فعل مثل فعلي فهو مثلي .

ومن فعل فوق فعلي فهو فوقني ، ومن فعل دون فعلي

فهو دوني .

فهل يا ترى يوجد بين المتمدنين اليوم من تجتمع فيه
هذه الخلال (٣) الشريفة كلها ؟ ! أفلا يحق لمدينة المستقبل

(١) شمع بأفقه : تكبر وتعالى .

(٢) أغدق : أي أجود وأعطي . (٣) الخلال الصفات الحسنة .

أن تفاخر سائر المدن بمثل هذا الأمير ؟
 وبين العرب من كان أعظم منه ، دخل ابن العباس
 على علي ابن ابي طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله ،
 فقال له : ما قيمة هذا النعل ؟
 فقال ابن العباس : لا قيمة له .
 فقال له علي : لبي أحب إلي من إمرتكم ، إلا أن
 أقيم حقاً أو أدفع باطلاً .
 فالمدينة العظمى ، هي التي يكثر فيها مثل هؤلاء
 الرجال العظام الصالحين .

حكم وآراء

- من نقب وبجث ثم كتب فهو ربيع كاتب ، ومن رأى
 ووصف فهو نصف كاتب ، ومن شعر وأبلغ ، وأبلغ الناس
 شعوره فهو الكاتب كله .
- عندما فهمت أسرار الحياة ، تشوقت إلى الموت ،
 لأنه أعمق أسرار الحياة .
- من يشنقه صوت الماضي ، لا يستطيع مخاطبة المستقبل .
- ما أفصحني متكلها عن القشور ، وما أعياني أمام اللباب .
- من حسنت الناس أنهم لا يستطيعون إخفاء سيئاتهم
 طويلاً .
- إن شئت أن ترى المرأة حقيقة ، فتأملها وعيناك
 منمضتان .

- يحب الرجل امرأتين : امرأة يراها بعين خياله ، وامرأة لم تولد بعد .
- الرجل : هو الذي لا يفتخر عيوب المرأة ، لا ولن يعرف حسناتها .
- ما الدموع تلك التي تظهر متلعة باجفاننا ، بل تلك التي تختبئ مستترة بقلوبنا .
- رب جنازة في الناس ، كانت عرساً عند الملائكة .
- كان الاقدمون يقولون : ألا فاختر لنفسك الدنيا ، أو الآخرة ؛ وأنا أقول . لقد اخترت الاثنين : الدنيا والآخرة ، لأنها من صنع الله ، والله يحب كل ما صنعت يدها القدسيان .

الشیطان



كان الخوري سيمان عالماً بدقائق الأمور الروحية ، متبسّطاً بالمسائل اللاهوتية ، متمقاً بأسرار الخطايا العرضية والميتة ، متضلماً بخفايا الجحيم والمطهر^(١) والفردوس . وكان يتنقل بين قرى شمال لبنان ، ليعظ الناس ويشفي أرواحهم من أمراض الإثم ، وينقذهم من حبائل الشيطان ، فالشيطان كان عدو الخوري سيمان ، يحاربه ليلاً ونهاراً بلا ملل ولا تعب .

(١) المطهر : مكان تطهر أنفس الأبرار فيه بعد الموت بعذاب له أجل

وكان سكان القرى يكرمون الخوري سمعان ، ويرتاحون الى ابتياع عظامه وصلواته بالفضة والذهب ، ويتسابقون الى إهدائه أطيب ما تثمره أشجارهم ، وأفضل ما تنبتة حقوقهم .

ففي عشية يوم من أيام الخريف ، وقد كان الخوري سمعان في مكان خال نحو قرية منفردة ، بين تلك الجبال والأودية ، سمع أنينا موجعا آتيا من جانب الطريق ، فالتفت ، فاذا برجل عاري الجسم منطرح على الحصباء ، ونجميع الدم يتدفق من جراح بليغة في رأسه وصدره ، وهو يقول مستنجداً : « إنقذني ، أعنسي ، اشفق عليّ فأنا مائت ! » .

فوقف الخوري سمعان محتاراً ، ونظر الى الرجل المتوجع ، ثم قال في ذاته (١) : هذا أحد اللصوص الأشقياء . وأظن أنه قد حاول سلب عابري الطريق ، فغلب على أمره ... فهو منازع ، فاذا مات وأنا بقربه اتهمت بما أنا براء منه !

قال هذا ، وهم ليتابع السير ، فأوقفه الجريح بقوله : « لا تتركني لا تتركني ، أنت تعرفني وأنا أسرفك ، أنا مائت لا محالة ! » .

فقال الخوري في ذاته ، وقد اصفر وجهه ، وارتعشت شفتاه : « أظنه أحد المجانين الذين يتوهون (٢) في البرية » . ثم عاد وقال لنفسه : « ان منظر جراحه يخيفني ،

(١) ذاته : نفسه . (٢) يتوهون : أي يهيمون ضائعين .

هنا حسبي أن أفعل له ... إن طبيب النفوس لا يستطيع أن يدوي الأجساد .

وشى الخوري بضع خطوات ، فصاح الجريح بصوت يذيب الجهاد قائلاً : « اقترب مني . اقترب فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد . أنت الخوري سمعان الراعي الصالح ، وأنا - أنا - لست بلص ولا بمجنون . اقترب فأقول لك من أنا » .

فاقترب الخوري سمعان من المنازع ، وانحنى فوقه متفرساً (١) ، فرأى وجهاً غريب الخطوط ، يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء ، والقباحة بالجمال ، والخبائثة بالدمائة (٢) ، فتراجع إلى الوراء ، وصرخ قائلاً : من أنت ؟

فقال الخوري بصوت خافت : « لا تخف يا أبت فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد . أعنتي على النهوض وسر بي الى الشافية القريبة فأعسل جراحي بمنديلك » .

صرخ الخوري : « قل لي من أنت ، فأنا لا أعرفك ، لا أذكر أنني رأيتك في حياتي » .

فأجاب الجريح ، وحشرجة الموت تعانق صوته : « أنت تعلم من أنا ، فقد لقيتني ألف مرة ، وشاهدت وجهي في كل مكان ، أنا أقرب المخلوقات اليك ، بل أنا أعز عليك من حياتك » .

(١) تفرس فيه : نظر اليه وثبت نظره فيه .

(٢) الدماثة : سهولة الخلق .

فصاح الخوري قائلاً : « أنت كاذب محتمل » ، وخلق
بالمنازعين الصدق ، فأنا لم أر وجهك في حياتي ، قل من
أنت وإلا تركتك تموت مضرجاً بدمائك .

فتحرك الجريح قليلاً ، وشخص (١) بعيني الخوري ،
وقد ظهرت على شفثيه ابتسامة معنوية ، وبصوت هاديء
ناعم عميق قال : أنا الشيطان .

فصرخ الكاهن صوتاً هائلاً ، ارتعشت له زوايا ذاك
الوادي ؛ ثم نظر إليه محققاً ، فرأى ان جسد الجريح
ينطبق بتفاصيله ومعامله على هيئة الأبالسة في صورة الـدينونة
المعلقة على جدار كنيسة القرية ثم صرخ مرتجفاً : « لقد
اراني الله صورتك الجهنمية ، ليزيد بك كرهى ؛ فلتكن
ملعوناً إلى ابد الأبدى ! .

قال الشيطان : لا تكن متسرعاً يا ابتاه ؛ ولا تضيع
الوقت بالكلام الفارغ ، بل اقترب وضمد جراحي قبل
ان يسيل ما في جسدي من الحياة .

فقال الخوري : إن اصابعي التي ترفع الذبيحة الربانية
في كل يوم ، لن تلمس جسديك المصنوع من مفرزات الجحيم ،
فمت ملعوناً من السنة الدهور وشفاه الإنسانية ، لأنك
عدو الدهور ، والعامل على إبادة الإنسانية ! .

فقال الشيطان متمللاً (١) : « أنت لا تدري ما تقول ،

(١) شخص ببصره : رفعه .

(٢) تدل : تطلب على فراشه مرضاً أو غمًا .

ولا تعلم أي ذنب تقترفه نحو نفسك . إسمع فأخبرك
حكايقي ؛ كنت اليوم سائراً وحدي في هذه الأودية المنفردة ،
ولما بلغت هذا المكان ، التقيت بجماعة من أجلاف (١)
الملائكة ، فهجموا عليّ وضربوني ضرباً مبرحاً ، ولو لم يكن
مع أحدهم سيف ذو حدين ، لفتكت بهم جميعاً ، ولكن
ماذا يفعل الأعزل مع المسلح ؟ .

وقف الشيطان عن الكلام هنيئاً ، واضعاً يده على جرح
بليغ في جانبه ، ثم زاد قائلاً : « أما الملك المسلح وأظنه
ميخائيل ، فداهية يحسن ضرب السيف ، ولو لم أنطرح
على الأرض وأمثل دور النزع والموت ، لما ابقى مني
عضواً يجوار عضو آخر . »

فقال الخوري بصوت تعانقه رنة النصر والتغلب : « ليكون
اسم ميخائيل مباركاً فقد أنقذ الإنسانية من عدوها الخبيث ! » .
فقال الشيطان : « ليست عداوتي للإنسانية أشد سواداً
من عداوتك لنفسك ، فانت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك
بشيء ، وتجدف (٢) على اسمي في ساعة انكساري ، مع انني
كنت ولم أزل سبباً لراحتك وسعادتك ، أتجدد نعمتي
وتنكر معروفي ، وأنت عائش في ظلال كياني؟ ! أو لم
تتخذ وجودي صناعة لك ، واسمي دستوراً لأعمالك ! هل
أغناك ماضي عن حاضري ومستقبلي ؟ هل نمت ثروتك الى

(١) أجلاف - جمع جلف - وهو الغليظ الجاني ، الأحمق .

(٢) جدف على اسمه ؛ تكلم عليه بالاهانة والتحقير .

حد لا تحمل معه الزيادة! ألم تعلم أن زوجتك وبنيك
 وهم كثيرون ، يفقدون رزقهم بفقدي ، بل ويموتون جوعاً
 بموتي ! ماذا تفعل لو حكم القضاء باضحلاي ، وأية صناعة
 تحسنها اذا أبادت الأرياح اسمي ؛ منذ خمس وعشرين سنة ،
 وأنت تسير متجولاً بين قرى هذا الجبل ، لتحذر الناس
 من حباتي ، وتبعدم عن مصائبي ، وهم يبتاعون مواعظك
 بأموالهم وغلّة حقولهم . فأني شيء يبتاعون منك غداً
 اذا علموا أن عدوهم الشيطان قد مات ، وأنهم أصبحوا في
 مأمن من حباته ومعاقله ، وأية وطنية يسندها القوم اذا ألغيت
 وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان ! ألا تعلم وأنت اللاهوتي
 المدقق : أن وجود الشيطان قد أوجد اعداءه الكهان ،
 وأن تلك العداوة القديمة هي اليد الخفية التي تنقل الفضة
 والذهب من جيوب المؤمنين ، الى جيوب الوعاظ والمرشدين !
 ألا تعلم - وأنت العالم الخبير - أنه بزوال السبب يزول
 المسبب ! اذا كيف ترضى بموتي ، وبموتي تفقد منزلتك ،
 وينقطع رزقك ، ويكف الخبز عن أفواه زوجتك وبنيك! .

وسكت الشيطان دقيقة ، وقد تبدلت في وجهه دلائل
 الاستعطاف بامارات الاستقلال ، ثم عاد فقال : « الا
 فاسمع أيها النغي المكابر ، فأريك الحقيقة التي تضم كياني
 بكيانك ، وتربط وجودي بوجودك ، في اول ساعة من
 الزمن ، وقف الانسان أمام الشمس وبسط ذراعيه ، وصرخ
 للمرة الاولى قائلاً : « ما وراء الأفلاك ، إله عظيم يجب

الخير ! » ثم أدار ظهره للنور ، فرأى ظله منبسطاً على أديم
التراب ، فهتف قائلاً : « وفي أعماق الأرض شيطان رجيم
يحب الشر ! » ثم سار نحو كهفه هامساً في نفسه : « أنا
بين إلهين هائلين : إله أنتمي إليه ، وإله أحاربه » ومرت
العصور إثر العصور ، والانسان بين قوتين مطلقتين : قوة
تصعد بروحه الى العلاء فيباركها ، وقوة تهبط بجسده الى
الظلمة فيلعنها ؛ غير أنه لم يكن يدري معاني البركة ، ولا
معاني اللعنة ، بل كان بينها كشجرة بين صيف يكسوها ،
وشتاء يعريها ، ولما بلغ الانسان فجر المدينة ، وهي الألفة
البشرية ، ظهرت العائلة ، ثم القبيلة ؛ ففرقت الأعمال
بتفريق الميول ، وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع ،
فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الأرض ، وآخرون ببناء
المآوي ، وغيرهم بنسج الملابس ، وغيرهم بصهر المعادن .
في ذلك العهد البعيد ، ظهرت الكهانة في الأرض ، وهي
الحرفة الاولى التي ابتدعها الانسان بدون حاجة حيوية ،
أو داعٍ طبيعي اليها .

وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ، ثم قهقه ضاحكاً بصوت
ارتعشت له تلك الأودية الخالية ، وكان الضحك قد أوسع
فوهات (١) كلومه ، فأسند خاصرته بيده متوجعاً ، ثم
شخص بالخوري سمان وزاد قائلاً : « في ذلك العهد
ظهرت الكهانة في الأرض ، واليك يا أخي كيفية ظهورها :

(١) فوهات كلومه - جمع فومة - : وهي فمها .

كان في القبيلة الاولى رجل يدعى (لاويص) ولا أدري لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب ، وكان لاويص رجلاً ذكياً ولكنه كان بطالاً متوانياً^(١) يكره حراثة الأرض ، وبناء المآوي ، ويكره رعاية المواشي وصيد الوحوش ، بل كان يكره كل عمل يستلزم السواعد والحركة الجسدية ، ولما كان الرزق في ذلك العهد لا يأتي إلا بالعمل ، كان لاويص يبديت أكثر لياليه خاوي الجوف فارغه ، ففي ليلة من ليالي الصيف ، وأفراد تلك القبيلة ملتثمون^(٢) حول كوخ زعيمهم ، يتحدثون بما آتى يومهم ويترقبون النعاس ، انتصب^(٣) أحدهم فجأة وأشار نحو القمر ، وصرخ بخوف قائلاً : « انظروا نحو إله الليل فقد شحب وجهه^(٤) ، واضمحل بهاؤه ، وتحول الى حجر أسود معلق بقبة السماء ، فشخص القوم بالقمر ، ثم ضجوا صارخين ، متهيبين ، مرتعشين ، خائفين ، كأن أيدي الظلام قد قبضت على قلوبهم ، لأنهم رأوا إله لياليهم يتحول ببطء الى كرة قائمة ، وقد تغير لذلك وجه الأرض ، وانحجبت البطاح والأودية وراء نقاب أسود ، فتقدم إذ ذاك لاويص وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرات عديدة في سابق حياته ، فوقف في وسط الجماعة رافعاً ذراعيه الى العلاء ، وبصوت أودعه كل ما في

(١) المتواني : الكسول .

(٢) ملتثمون : أي مجتمعون .

(٣) انتصب : وقف .

(٤) شحب وجهه : تغير لونه .

وأخذوا يقفزون رواقصين ، ويصرخون مهلين ، ويضربون
بنبايتهم (١) صفائح الحديد والنحاس ، مفعمين خلايا ذلك
الوادي بعويلهم وضجيج لهجتهم . . .

في تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له :
« لقد أتيت في هذه الليلة بما لم يأته بشري قبلك ، وعلمت من
أسرار الحياة ما لا يعلمه بيننا سواك ، فافرح وابتهج لأنك
ستكون من الآن وصاعداً صاحب المقام الأول من
بعدي في هذه القبيلة ، فأنا أشد الرجال بطشاً وأقوام
ساعداً ؛ وأنت أكثر الرجال معرفة وأكثرهم حكمة ،
بل أنت الوسيط بيني وبين الآلهة قبلغني مشيئتهم ، وتبين
لي أعمالهم وأسرارهم ، وتعلمني ما أحب ان أفعله لأكون
خالصاً حاصلًا على رضائهم ومحبتهم » .

فأجاب لاويص : « كل ما يقوله لي الآلهة في الحلم ،
أقوله لك في اليقظة ، وما أراه من مآتيهم ، أظهره لك ،
فأنا الوسيط بينك وبين الآلهة » .

فسر الزعيم ، ووهب لاويص فرسين ، وسبعة عجول ،
وسبعين كبشاً ، وسبعين شاة ، وقال له : « سوف يبني لك
رجال القبيلة بيتاً يماثل بيتي ، وتسيهدونك في نهاية كل موسم
قسماً من غلة الأرض وأثمارها ، فتعيش سيداً مطاعاً
مكرماً » .

وانتصب اذ ذاك (لاويص) للانصراف ، فأوقفه

(١) النبايت - جمع نبوت - : يطلق على العصا .

الزعيم ، رسأله قائلاً : « ولكن من هو هذا الإله الذي تدعوه بإله الشر ، ومن هو هذا الإله الذي يجسر ان يصارع إله الليل البهيمى ؟ إننا لم نسمع به قط ، ولا علمنا بوجوده ! »

ففرك لاويص جبهته وأجاب قائلاً : « أعلم يا سيدي أنه في قديم الزمان - وذلك قبل ظهور الانسان - كان جميع الآلهة يعيشون بسلام ومودة في مكان قصي وراء المجرة ، وكان إله الآلهة - وهو والدم - يعلم ما لا يعلمونه ، ويفعل ما لا يستطيع أحدهم ان يفعله ، يحفظ لنفسه بعض الأسرار الربانية الكائنة وراء النواميس الأزليية ، ففي العصر السابع من الدهر الثاني عشر ، تمردت روح (بعطار) وهو يكره الإله الاعظم ، فوقف أمام أبيه وقال : « لماذا تحتفظ لنفسك بالسلطة المطلقة على جميع المخلوقات ، حاجباً عنا أسرار الاكوان والنواميس والدهور ، أولسنا أبناءك وبناتك ، ومشاركين لك بقوتك وخلودك ؟ » .

فغضب إله الآلهة وأجاب : « سوف أحفظ لنفسي القوة الاوليية ، والسلطة المطلقة ، والاسرار الأساسية ، إلى أبد الدهر ، فأنا البدء وأنا النهاية » . فقال بعطار : « إن لم تقاسمني قوتك وجبروتك ، تمردت أنا وأبنائي وأحفادي على قوتك وجبروتك » . فانتصب إذ ذاك إله الآلهة فوق عرشه ، وقد امتشق المجرة ^(١) سيفاً وقبض على

(١) المجرة : منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة، لا يميزها البصر ، فيراها كبقعة بيضاء .

الشمس ترساً ؛ وبصوت ارتعشت له جوانب العالم صرخ قائلاً : « ألا فاهبط أيها المتمرد الشرير إلى العالم الأدنى ، حيث الظلمة والشقاء ، وابق هناك منفياً شريداً قائماً ، حتى تنقلب الشمس رماداً ، وتتحول الكواكب إلى هباء منثور . في تلك الساعة هبط بعطار من مقر الآلهة إلى العالم الأدنى ، حيث تقيم الأرواح الخبيثة ؛ وقد أقسم بسر خلوده أنه سيصرف الدهور محارباً والده وإخوانه ، واضعاً الأشرار^(١) لكل محب لوالده أو مريد لإخوانه . فقال الزعيم وقد تقلصت جبهته ، واصفر وجهه : « إذن فاسم إله الشر بعطار ؟ »

فأجاب لاويص : « كانت اسمه بعطار إذ كان في مقر الآلهة ، ولكنه قد اتخذ له بعد هبوطه إلى العالم الأدنى أسماء أخرى منها : (بعزبول) و (إبليس) و (سطنائيل) و (بليال) و (زميال) و (أهريمان) و (ماره) و (ابدون) و (الشيطان) ، وأشهرها : الشيطان . »

فردد الزعيم لفظة الشيطان مرات بصوت مرتعش يشابه حفيف الأغصان اليابسة لمرور الهواء ؛ ثم قال : « ولماذا يا ترى يكره الشيطان البشر بكره الآلهة ؟ » . فأجاب لاويص « إن الشيطان يكره البشر ويعمل على إبادتهم ، لأنهم من نسل إخوانه وأخواته . »

(١) الأشرار في الأسفل حبات الصيد ، وهنا بمعنى الصعوبات

فقال الزعيم محتاراً: «إذا فالشيطان هو عم البشر وخالهم». فأجاب لاويص ، وقال بلهجة لا تخلو من التشويش والالتباس (١) : « نعم يا سيدي ، ولكنه عدوهم الأكبر ومناظرهم الحقود ، يلاً أيامهم بالنعاسة ، ولياليهم بالأحلام المخيفة . فهو القوة التي تحول العاصفة نحو أكوأخهم ، وتحرق بالغيط مزارعهم ، وتقرض بالأوبئة مواشيهم ، تلامس بالأمراض أجسادهم ، هو إله قوي شرير خبيث ، يضحك نشقائنا ، ويكتب لأفراحنا » فعلينا ان نتفحص أطباعه لنتقي شره ، وندرس أخلاقه لنبتعد عن سبل احتياله .

فأسند الزعيم رأسه على نبوته ؛ وهمس قائلاً : « قد عرفت الآن ما كان خافياً عني من أسرار تلك القوة الغريبة ، التي تحول العاصفة نحو منازلنا ، وتقرض بالأوبئة مواشينا ؛ وسوف يعرف البشر كافة ما اعرفه الآن فيطوبوك يا لاويص ، لأنك أبنت لهم خفايا عدوهم القوي ، وعلمتهم كيف يتقون حبايله . »

وانصرف لاويص من امام زعيم القبيلة ، وذهب إلى مرقد فرحاً بذلك فكرته ؛ نشواناً بخمرة خياله . اما الزعيم ورجاله ، فقد حسروا تلك الليلة يتقلبون على مراقد مخاظة بالاشباح المخيفة ، والأحلام المزعجة .

وقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام ؛ والخورى سمان يحدق فيه ، وفي عينيه جمود الحيرة والاستغراب ،

(١) الالتباس : الشبهة والإشكال .

وعلى شفثيه ابتسامه الموت :

ثم استأنف الشيطان الكلام قائلاً : « كذا ظهرت الكهانة في الأرض ، وهكذا كان وجودي سبباً لظهورها ، وقد كان لاويص أول من اتخذ عداوتي صناعة ، وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة ابنائنه واحفاده ، فتمت وتدرجت حتى صارت فناً دقيقاً مقدساً لا يتخذ غير أصحاب العقول المختمرة ، والنفوس الشريفة ، والقلوب الطاهرة ، والخيال الواسع . ففي (بابل) كانت الناس يسجدون سبع مرات أمام الكاهن الذي يحاربني بتمالسه . وفي « نينوى » كانوا ينظرون إلى الرجل الذي يدعي معرفة أسرارى وخفاياى ، كحلقة ذهبية بين الآلهة والبشر . وفي « ثيب » كانوا يلقبون من يصارعني ببن الشمس والقمر . وفي « بابلس » و « افسس » و « انطاكية » كانوا يضحون ابنائهم وبنائهم إرضاء لخصمى . وفي « أورشليم » و « رومة » كانوا يضمون أرواحهم في قبضة من يتفنن في كرهى وإبعادى . في كل مدينة ظهرت أمام وجه الشمس ، كان اسمى محوراً لدوائر الدين والعلم والفن والفلسفة ، فالهياكل لم تقم إلا في ظلاى ، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهرى ، والقصور والنبروج لم ترتفع إلا برفعة منزلتى ، فأنا العزم الذي يولد العزم في البشر ، وأنا الفكرة التى تستنبت الحيلة في الأفكار ، وأنا اليد التى حركت أيادى الناس ، أنا الشيطان الأزلى الابدى ! أنا الشيطان الذى

يحاربه الناس ليظلوا عائشين ، واذا كفوا عن منازلتي يوقف
 الخمول افكارهم ، ويميت الكسل أرواحهم وتفتني الراحة
 اجسادهم ! أنا الشيطان الأزلي الأبدي ! أنا عاصفة هوجاء
 خرساء ، اهب في أدمغة الرجال ، وصدور النساء ،
 واجرف امياهم إلى الأديرة والصوامع ، ليمجدوني بخوفهم
 مني ، أو إلى منازل البغي والخلاعة ، ليفرحوني باستسلامهم
 إلى مشيئتي ؛ فالراهب الذي يصلي في سكينة الليل ، لكي
 ابتعد عن مضجعه ، هو كالمومسة التي تناديني لكي اقترب
 من مضجعه ، أنا الشيطان الأبدي !.. أنا باني الأديرة
 والصوامع على اسس الخوف ، وأنا مقيم الخمارات وبيوت
 الفحش على اسس الشهوة واللذة ! فإن زال كياني ، زال
 الخوف واللذة من العالم ، وبزوالهما تضحل الميول والأمانى
 في القلب البشري ، فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة
 كقيثارة مقطعة الأوتار مكسرة الجوانب . أنا الشيطان
 الأزلي الأبدي ، أنا موحى الكذب والنميمة والاعتياب
 والغش والسخرية ، فإذا انقرضت هذه العناصر في العالم
 أصبحت الجامعة البشرية كبستان مهجور لا تنبت فيه سوى
 أشواك الفضيحة ، أنا الشيطان الأزلي الأبدي ! أنا ابو الخطيئة
 وامها ، فإذا زالت الخطيئة زال محاربوها ، وزلت انت
 ايضاً ، وزال ابناؤك واحفادك وزملاؤك ورفقاءك (١) ، أنا
 ابو الخطيئة وامها ، فهل تريد أن تموت الخطيئة بموتي ؟

(١) الرصفاء - جمع رصيف - وهو النظر ، والإلف .

هل تريد ان تقف الحركة البشرية بوقوف ينضان قلبي ؟
 هل تريد ان تمحو السبب لتمحي المسببات ؟ انا هو السبب
 الوضعي ، فهل تريد ان اموت في هذه البرية . اجبني ايها
 اللاهوتي ؟ هل تريد ان تنتهي العلاقة الأولية الكائنة
 بينك وبينني ؟ .

وبسط الشيطان ذراعيه ، والوى عنقه إلى الأمام ،
 وتنهد طويلاً فظهر بلونه الرمادي المائل إلى الاخضرار ،
 كأحد تلك التماثيل المصرية التي أبقاها الدهر مطروحة على
 ضفاف النيل . ثم حذق بوجه الخوري سمعان بعينين
 مشعشتين كالمسارج وقال : « لقد انهكني الكلام ، وكان
 الاخرى بي ، وانا جريح منازع ، ان لا اطيل معك الحديث ،
 ومن العجيب اني قد استرسلت بإظهار حقيقة انت ادري
 بها مني ؛ وبيان امور هي ادنى الى صالحك منها إلى
 صالحني . أما الآن ، فلك ان تفعل ما تشاء . لك ان
 تحملني على ظهرك وتذهب بي إلى منزلك لتداوي جراحي ،
 أو ان تتركني في هذا المكان لأنزع وأموت » .

وكان الشيطان يتكلم ، والخوري سمعان يرتعش ، ويفرك
 يداً بيد . وبصوت تعانقه الخيرة والارتباك ، قال : انا
 اعرف الآن ، ما لم اكن أعرفه منذ ساعة ، فسامح
 غباوتي ، انا اعلم بأنك موجود في العالم لكي تجرب ،
 والتجربة هي مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية ،
 بل هي ميزان يستخدمه الله عز وجل ليدرك ثقل الأرواح

او خفتها . أنا اعلم الآن بأنك اذا مت تموت التجربة ، وبموتها تزول تلك القوى المعنوية التي تجعل الإنسان ان يكون متحذراً ، بل يزول السبب ، الذي يقود الناس الى الصلاة والصوم والعبادة . يجب ان تحيا ، لأنك ان قضيت (١) وعرف الناس ، يزول خوفهم من الجحيم ، فيبطلون العبادة ، ثم يتمرغون (٢) بالإثم . من أجل ذلك يجب ان تحيا ، لأن بحياتك خلاص الجنس البشري من الرذيلة أما أنا ، فسوف اضحي كرهني لك على مذبح محبتي للجنس البشري .

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ؛ ثم قال : « ما أدهاك وما ابرعك يا حضرة الأب ، بل وما أعمق معارفك بالأمور اللاهوتية . فما قد أوجدت بقوة إدراكك سبباً لوجودي لم أكن أعرفه من قبل . والآن وقد فهم كل منا الاسباب الوضعية واللاهوتية ، التي أوجدتنا في البدء ، وتوجدنا الآن ، يجب أن نترك هذا المكان ، إقترب يا أخي ، تعال واحملي الى بيتك ، فأنا لست بثقيل الجسم . ها قد غمر الليل البطاح بعد أن أهرقت نصف دمي على حصباء هذا الوادي . »

فاقترب الخوري سمعان من الشيطان ، وقد شمر عن ساعديه ، وشكل اطراف عباةته بحزامه ، ورفع الشيطان فوق ظهره ، ومشى نحو الطريق .

(٢) ترغ في الإثم : تطلب .

(١) قضيت : مت .

بين تلك الأودية المغمورة بالسكون ، الموشاة بنقش
الليل ، سار الخوري سمعان نحو قرينته ، هجني الظهر تحت
هيكل عار ، وقد تلطخت ملابسه السوداء رجليته المسترسلة ،
بقطرات الدم السائلة من كلومه .



الكلام

وطوائف المتكلمين

•

لقد سالت الكلام والمتكلمين !
لقد تعبت روعي من الكلام والمتكلمين !
لقد ضاعت فكرتي بين الكلام والمتكلمين !
أستيقظ في الصباح ، فأرى الكلام جالسا بجانب مضجعي
على صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر إلي
بعيون ملؤها الدهاء والخبث والرياء .
أغادر فراشي وأجلس الى جانب النافذة لأزيع ثقل
النوم عن بصيرتي بفنجان من القهوة ، فيتبعني الكلام
وينتصب أمامي راقضا صارخا معربدا ، ثم يمد يده مع
يدي الى فنجان القهوة ، ويرتشف منه بارتشافي . وإذا

تناولت لفافة يتناولها معي وإذا رميت بها رماها معي أيضاً.
 أقوم للعمل فيلحق بي الكلام موسوساً في أذني ، مهمها
 حول رأسي ، مقرقماً في خلايا دماغي . فأحاول طرده
 فيضحك مقهقها ، ثم يعود الى الوسوسة والهمهمة والقرقعة .
 أخرج الى الشوارع فأرى الكلام واقفاً في باب كل
 حانوت ، منبسطاً على جدران كل منزل . أراه في أوجه
 الناس وهم صامتون ، وفي حركاتهم وسكناتهم وهم لا يدرون .
 إن جالست صديقي يكون الكلام ثالثنا . وإن التقيت
 بعدوي ينتفخ الكلام إذ ذاك ويتمدد ، ثم يتجزأ متحولاً
 الى جيش عرمرم ، أوله مشارق الأرض ، وآخره مغاربهها .
 فإذا غادرته هارباً ظل صدى كلامه يتمايل مختبئاً في باطني
 اختبأط طعاماً لا تهضمه المعدة .

أذهب الى المحاكم والمعاهد والمدارس ، فأرى الكلام
 وأباه وأجابه ، وهم يلبسون الكذب رداءً ، والاحتيال
 عمامة والكلام حذاء .

ثم أسير الى المعمل والى المكتب والإدارة ، فأجد
 الكلام واقفاً بين أمه وعمته وجدته ، وهو يقلب لسانه
 بين شفتيه الغليظتين ، وهن يبتسمن له ويضحكن مني .

وإذا بقي لي شيء من العزم والتجهد ، وزرت المعابد
 والهيكل ، رأيت هناك الكلام جالساً على عرشه ، وهو
 متوج الرأس في صولجان دقيق الصنع ، لطيف الجوانب ناعمها .
 وعندما أعود في المساء الى غرفتي ، أجد الكلام الذي
 سمعته سحابة نهاري ، متديلاً كالأفاعي من سقفها . منسللاً

كالمقارب في قرانها .

الكلام في الفضاء وما وراءه . وعلى الأرض وتحتها .
الكلام على اجنحة الأثير ، وفي أمواج البحر ، وفي
الغابات والكهوف ، رفوق قمم الجبال .
الكلام في كل مكان ! فإلى أين يذهب من يريد الهدوء
والسكينة ؟ .

أوجد في هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمي إليها ؟
هل يرحمني الله ويمنحني موهبة الطرش ، فأحيا سعيداً . في
جنة السكون الأبدي ؟ .

أليس على وجه البسيطة قرنة نخالية من شقشقة اللسان
وبلبلة الألسنة ، حيث الكلام لا يباع ولا يشترى . ولا
يعطى ولا يؤخذ ؟

ليت شعري أين سكان الأرض من لا يعبد نفسه متكلماً ؟
هل يوجد بين طفمات ^(١) الخلق من لم يكن فمه مغارة للصوم
الألفاظ ؟

ولو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا ، ولكنهم
انواع وأشكال لا عداد لها .

فهناك طائفة « المستضعفين » الذين يعيشون في المستنقعات
النهار بطوله . وعندما يجيء المساء ، يقتربون من الشواطئ
رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء ، مفعمين صدر الليل بضجيج
قبیح قاباه المسامع والأرواح .

(١) طفمات - جمع طفمة - : وهي الجماعة أمرهم واحد .

وهناك طائفة « المستبعضين » و « والبعض من مولدات
المستنقعات أيضاً » وهم الذين يرفرفون حول أذنك بنغمة
تافهة رفيعة شيطانية سداها النكاية ولحمها البغضاء .
وهناك طائفة « المستطحنين » وهي طائفة غريبة ، في
داخل كل فرد من أفرادها حجر يدار بالكحول ، فيولد
جفجعة جهنمية أخفها أثقل مما تحدثه حجارة الرحي .
وهناك طائفة « المستبقرين » وهم الذين يملأون أجوافهم
حشيشاً ، ثم يقفون على منعطفات الشوارع والأزقة ، مبطنين
الهواء بنحوار أطفه أغلظ من خوار الجاموس .
وهناك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصرفون الساعات
بين مقابر الحياة وأجدائها ، محولين سكينه الدجى الى عويل
أفرحه أحزن من نعيب البوم .
وهناك طائفة « المستنشرين » وهم الذين لا يرون من الحياة
إلا أخشابها ، فيصرفون الأيام بتجزئتها وتفصيلها ، محدثين
بذلك خشخشة أعذبها أضنك مما تحدثها المناشير .
وهناك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نفوسهم
ببطارق ضخمة ، فيخرج من أفواههم الفارغة قرقرة ، أطفها
أغلظ من قرقرة الطبول .
وهناك طائفة « المستملكين » وهم الذين لا شغل لهم ولا
عمل ، فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ، ويمضون الكلام
ولكنهم لا يلفظونه .
وهناك طائفة « المستهرئين » وهم الذين يستغيبون الناس ،

ويستغيبون بعضهم بعضاً ، ويستغيبون نفوسهم ، ولكنهم يدعون الاستغاثة باسم المجون ، والمجون ضرب من الجسد ، ولكنهم لا يعلمون .

وهناك طائفة « الأنوال » التي تحو ك الهواء بالهواء ، ولكنها تظل هي بدون قمصان ولا سراويل .

وهناك طائفة « الأجراس » وهي تدعو الناس الى الهياكل ، ولكنها لا تدخلها .

وهناك طوائف وعشائر ، لا تبيد ولا تحصى ولا توصف . أغربها في طائفة نائمة ، ولكنها تملأ الفضاء غطيماً ، ولكنها لا تدري .

والآن ، وقد أبنت بعض قرني واشمئزاتي من الكلام والمتكلمين ، أراني كالطبيب المعتل ، او كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام . وتطيرت من المتكلمين ، وأنا واحد من المتكلمين ، فهل يغفر الله ذنبي قبيل أن يرحمني وينقلني الى غابة الفكر والمساطفة والحق ، حيث لا كلام ولا متكلمون .